تهذيب إسلامي لقصص :

كليلة ودمنة

مع دراسة حول مؤلفها

بقلم

سليمان بن صالح الخراشي

تهذیب اسلامی

لقصص

کلیلہ و دمنہ

الطبعة الأولى ١٤١٩هـ

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ ص.ب/ ٦٣٧٣ ت/٤٧٧٥٣١١ فاكس/٤٧٧٤٤٣٢

تهذيب إسلامي

لقصص

كليلة ودمنة

بقلم

سليمان بن صالح الخراشي

دار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ ص . ب ٦٣٧٣

ت : ٤٧٧٥٣١١ فاكس : ٤٧٧٤٤٣٢

المقدمـــــة
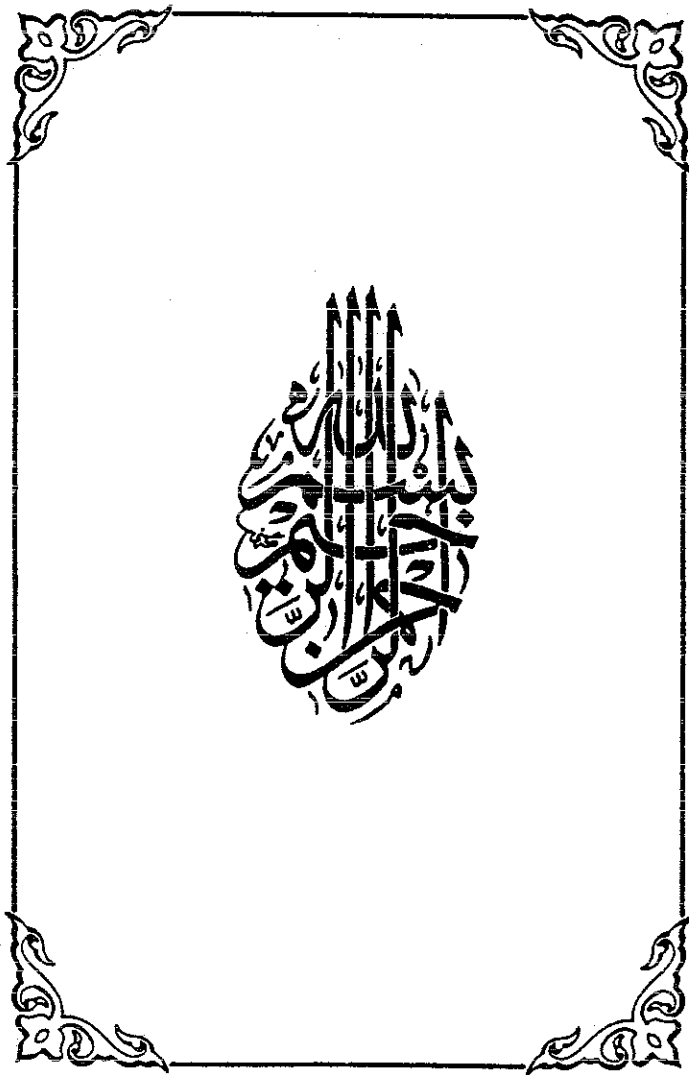
(كليلة ودمنه).. كتاب مشهور بين الخاصة والعامة، صيغت حكاياته على ألسنة الحيوانات بقصد التثقيف بأسلوب لطيف، والتفكه وإظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسًا للقلوب، يصلح للصغير والكبير.

وهي طريقة قديمة بدأها الهنود والفرس ثم انتقلت إلينا عبر الترجمة، التي كان منها هذا الكتاب المشتهر بين الناس منذ أزمان.

ولشهرته فقد قام بعض الأدباء بنظمه، منهم (أبان بن عبدالحميد اللاحقي) أحد شعراء الدولة العباسية، المتوفى سنة ٢٠٠هـ.

وقد افتتحه بقوله:

هــذا كتــاب أدب ومحنــة
وهــو الــذي يــدعــى كليلــة ودمنــهْ
فيــه احتيــالات وفيــه رشــدُ
وهــو كتــابٌ وضعتــه الهنــد

وممن نظمه أيضًا (سهل بن نوبخت) وقدمه إلى يحيى بن خالد البرمكي.

ومنهم ابن الهبارية: الشريف أبويعلى محمد بن حمزة ومما قال في نظمه:

والمـــالُ مقصـــود لـــدى اللئـــام
كـــالكلـــب إذ يقنـــع بـــالعظـــام
والفـــاضـــل الكـــامـــل مثـــل الأســـد
يسمـــو علـــى القـــدر البعيـــد الأمـــد
والكلـــب يـــرضـــى نفســـه بكســـره
والفيـــل لا يـــرجـــو الغـــلام كســـره

وقد نظم الكتاب آخرون غيرهم(١).

ولبيان شهرة هذا الكتاب ـ أيضًا ـ فقد [توالت طبعاته(٢) في مصر منذ عهد محمد علي باشا إلى اليوم واتخذته وزارة المعارف كتابًا مدرسيًا فلا تجد في مصر عالمًا أو متعلمًا إلا اطلع عليه وقرأه كله أو بعضه](٣).

وقد حذت كثير من الدول العربية حذو مصر فأدخلت هذا الكتاب ضمن مكتباتها المدرسية ـ ومنها بلادنا ـ لينتفع به الطلاب في مختلف المستويات. وبرغم حلاوة كلمات الكتاب وجمال حكاياته واشتماله على الأفكار االنافعة والأخلاق الشريفة.. فقد ضم بداخله أشياء كثيرة

---

(١) انظر: «دائرة المعارف الإسلامية» (١/ ٣٨)، و«ابن المقفع» لعبداللطيف حمزة (٢١٤ ـ ٢١٧).
(٢) منها طبعة المنفلوطي، وطبعة محمد حسن المرصفي، وطبعة لويس شيخو، وطبعة المحامي فوزي عطوي، وطبعة صابر يوسف، وطبعة عبداللطيف حمزة. وطبعات أخرى كثيرة.
(٣) كليلة ودمنة (٩).

لا توافق منهجنا الإسلامي كما سيأتي.

لهذا السبب أولاً.. ولشهرة الكتاب بين الناس منذ قديم الزمان ثانيًا، اخترت أن أقوم بتهذيب إسلامي لمحتوياته تزيل ما علق بها من آثار غير إسلامية أو أفكار وعبارات تضر ولا تنفع.. لكي يصل هذا الأثر القديم إلى أبنائنا نقيًا غير متكدر.

وقد قسمت هذا التهذيب إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: دراسة حول الكتاب ومؤلفه.

القسم الثاني: سرد القصص بعد تهذيبها.

❊ ❊ ❊ ❊

القسم الأول:

الدراسة

ابن المقفع:

وُلد ابن المقفع بقرية من قرى فارس اسمها (جور) وموضعها فيروز آباد الحالية، ويقول ابن النديم: إن اسمه بالفارسية (روزبه) ومعناه (المبارك) وكان يكنى قبل إسلامه بأبي عمرو. وكان اسم أبيه (داذويه) فلما أسلم تسمى بعبدالله وتكنى بأبي محمد[١].

قال الذهبي: [أحد البلغاء والفصحاء ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء من نظراء عبدالحميد الكاتب. وكان من مجوس فارس فأسلم على يد الأمير عيسى عم السفاح وكتب له واختص به][٢].

أول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ولي كتابة الديوان للمنصور العباسي وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف بايساغوجي[٣].

قال الأصمعي: صنف المصنفات الحسان منها الدرة اليتيمة التي لم يصنف في فنها مثلها.

قلت: ونقل ابن الجوزي في المنتظم (٨/ ٥٢) كلمات استحسنها من هذا الكتاب (اليتيمة) فمن ذلك قوله (أي ابن المقفع): [يا طالب العلم والأدب، اعرف الأصول والفصول فإن من الناس من يطلب

---

(١) ابن المقفع (٣٧) عبداللطيف حمزة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥، دار الفكر العربي.

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٨).

(٣) الأعلام للزركلي (٤/ ١٤٠) دار العلم للملايين.

الفصول مع إضاعة الأصول، فلا تكون دركهم دركًا، ومن أحرز الأصول اكتفى بها من الفصول، فإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل، وأفضل الأمر أن تعقد على الإيمان وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فإن قدرت أن تجاوز إلى الفقه والعبادة فهو أفضل، وأصل الأمر في إصلاح البدن أن لا يُحمل عليه من المآكل والمشارب والباءة إلا خفًا ثم إن قدرت أن تعلم عن جميع منافع الجسد ومضاره فهو أفضل].

قال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدّبك؟ فقال: نفسي، إذا رأيت من غيري حسنًا أتيته وإن رأيت قبيحًا أبيته.

واجتمع ابن المقفع بالخليل بن أحمد صاحب العروض، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيته؟ فقال: علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أكثر من علمه.

والمقفع ـ بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عين مهملة ـ وقال ابن مكي في كتاب (تثقيف اللسان): ويقولون: ابن المقفَّع والصواب ابن المقفِّع ـ بكسر الفاء ـ لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها. قال ابن خلكان [والقول الأول هو المشهور بين العلماء وهو فتح الفاء](١).

قال ابن خلكان: [كان ابن المقفع يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢)، دار صادر.

المغتلمة. . وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيرًا، وكان أنف سفيان كبيرًا، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما! يعني نفسه وأنفه وقال له يومًا: ما تقول في شخص مات وخلّف زوجًا وزوجة؟ يسخر به على رؤوس الناس، وقال سفيان يومًا: ما ندمت على سكوت قط، فقال له ابن المقفع: الخرس زين لك فكيف تندم عليه؟!. . وكثر ذلك منه فقدم سليمان وعيسى ابنا علي البصرة ـ وهما عما المنصور ـ ليكتبا أمانًا لأخيهما عبدالله بن علي من المنصور، وكان عبدالله المذكور قد خرج على ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشًا مقدمه أبومسلم الخراساني، فانتصر أبومسلم عليه. وهرب عبدالله بن علي إلى أخويه سليمان وعيسى، واستتر عندهما خوفًا على نفسه من المنصور، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه، ولا يؤاخذه بما جرى منه، فقبل شفاعتهما، واتفقوا على أن يُكتب له أمانٌ من المنصور، فلما أتيا البصرة قالا لعبدالله ابن المقفع: اكتبه أنت وبالغ في التأكيد كي لا يقتله المنصور، فكتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله: «ومتى غدَرَ أميرُ المؤمنين بعمه عبدالله بن علي، فنساؤه طوالق، ودوابه حُبُس، وعبيدة أحرار، والمسلمون في حل من بيعته».

وكان ابن المقفع يتنوق في الشروط، فلما وقف عليه المنصور عظم ذلك عليه، وقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: رجل يقال له عبدالله ابن المقفع يكتب لأعمامه، فكتب إلى سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقدم ذكره،

فاستأذن ابن المقفع يومًا على سفيان، فأخر إذنه حتى خرج من كان عنده، ثم أذن له فدخل، فعدل به إلى حجرة فقتل فيها.

وقال المدائني: لما دخل ابن المقفع على سفيان، قال له: أتذكر ما كنت تقول في أمي؟ فقال: أنشدك الله أيها الأمير في نفسي، فقال: أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلةً لم يقتل بها أحد، وأمر بتَنور فسُجِّر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضوًا عضوًا، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس عليَّ في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس.

وسأل سليمانُ وعيسى عنه فقيل: إنه دخل دار سفيان سليمًا ولم يخرج منها، فخاصماه إلى المنصور، وأحضراه إليه مقيدًا، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج، فأقاموا الشهادة عند المنصور، فقال لهم المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر، ثم قال لهم: أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت ـ وأشار إلى باب خلفه ـ وخاطبكم ما تروني صانعًا بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟! فرجعوا كلهم عن الشهادة، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور. ويقال: إنه عاش ستًا وثلاثين سنة][١].

قلت: وكانت ذلك سنة (١٤٥هـ) وقيل: (١٤٢هـ) وقيل غيرها كما في وفيات الأعيان (٢/ ١٥٣) والسير (٦/ ٢٠٩).

---

(١) (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦) بتصرف.

زندقة ابن المقفع:

اشتهر ابن المقفع بين أصحاب العلم والأدب بالزندقة والاستخفاف بالدين، وبعضهم يزيد في ذلك ويؤكد أنه بقي على مجوسيته ودينه القديم برغم إظهاره الإسلام وتغييره اسمه المجوسي.

فابن الجوزي يذكر في المنتظم أنه [يتهم في دينه] (٨/ ٥٦).

والذهبي يقول: [كان ابن المقفع يتهم بالزندقة].

وينقل عن المهدي قوله فيه: [ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع] (٦/ ٢٠٩).

ويقول ابن خلكان: [وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم، قال بعضهم: فكيف نسي الجاحظ نفسه؟][١] (٢/ ١٥١).

قلت: قد أطال الأستاذ عبداللطيف حمزة في رسالته (ابن المقفع) الحديث عن زندقته وعقد لها فصلاً كاملاً عنوانه (زندقة ابن المقفع) (٧٢ ـ ٩٥) تحدث فيه عن ديانات الفرس القديمة و[أن ابن المقفع

---

(١) الجاحظ من أساطين المعتزلة، وفي هذا بيان لبدعته، فلا يعد من الزنادقة إن قصد بهم المعنى المصطلح عليه للزنادقة، وهم من يبطن الكيد للإسلام، فهو (أي الجاحظ) ناصر لبدعته ويصدق فيه وفي كتبه ما قاله ابن قتيبة: [تجده يقصد في كتبه المضاحك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ويستهزيء من الحديث استهزاءً لا يخفى على أهل العلم..]. (تأويل مختلف الحديث ٤٢).

كان زرادشتي المذهب كأمثاله من الموالي] (٨٠) وينقل عن الصفدي قوله: [كانت آراء ابن المقفع الإلحادية منقولة أو معروضة في كتب الزنادقة الممنوعة] (٨١).

[وحفظ الناس قول ابن المقفع حين مر ببيت من بيوت النار بعد أن أسلم فتمثل قول الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل
حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني
قسمًا إليك مع الصدود لأميل] (٨١)

ويدلل الدكتور عبداللطيف على زندقته بأن باب (برزويه الطبيب) في كتاب (كليلة ودمنة) هو من وضعه هو لا كما يدعي أنه ترجمه، وفي هذا الباب ما فيه من [شكوك دينية كثيرة حاول إخفاءها بما كان يكتبه حول هذه الشكوك نفسها من عبارات إسلامية يرضي بها الرأي العام] (٨٢).

[ولقد قام الأستاذ (ميخائيل أنجلو جويدي) عام (١٩٢٧) بنشر كتاب عنوانه (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله آمين)، للقاسم إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم] (٨٣).

وكتابه هذا وضعه للرد على ابن المقفع في معارضته للقرآن الكريم! بكتاب وضعه في ذلك.

وأما الأستاذ أحمد أمين فقد شك في كتابه ضحى

الإسلام[١] [في نسبة الأصل لابن المقفع والرد للقاسم: واستدل على شكه في نسبة الرد إلى القاسم بشيئين: أحدهما: أن ابن النديم عدد كتب القاسم ولم يكن منهاكتاب بهذا الاسم[٢]، والآخر: أن كتاب القاسم سجع كله والسجع ليس من طريقة القرن الثالث الهجري).

قلت: وقد تعقبه في ذلك عبداللطيف حمزة بقوله ـ بعد أن أورد شيئًا من عبارات كتاب ابن المقفع ـ: [من تلك العبارات التي جمعتها من الكتاب رأيتَ أنه لم يكن مسجوعًا، ورأيت أن السجع الذي ورد فيه جاء عفوًا، بل رأيت هذه العبارات مقسمة تقسيمًا منطقيًا كالذي نعرفه من أسلوب ابن المقفع، ورأيت في هذا الأسلوب ميلاً إلى التهكم كالذي نعلمه من أخلاق الرجل] (٨٧).

أما عدم ذكر ابن النديم والمسعودي وغيرهما لهذا الكتاب في مؤلفات ابن المقفع فيقال: [إن هؤلاء جميعًا لا يحاولون الاستقصاء فيما يضيفونه من الكتب لابن المقفع أو غيره أيضًا] (٨٨).

ثم نقل الأستاذ عبداللطيف تلخيصًا مهمًا لمقالةٍ لأحد المستشرقين (اسمه غبرائيلي) (٨٩ ـ ٩٣) جاء فيها [أن ابن المقفع كان يؤمن بالمانوية، وأنه ربما وجد فيها يومئذٍ ما يهدىء شيئًا من ثورة نفسه التي عذبتها الشكوك، وهي النفس التي خلفت لنا (باب برزويه) شاهدًا عليها، وهو باب إن لم يكن ابن المقفع ألفه كله، فمن المحقق أنه

---

(١) (٢/ ٢٢٤).
(٢) الفهرست (١٩٣).

تناوله بالتغيير والإضافة. ومن يدري لعله رأى أن المانوية هي التي استطاعت في نظره أن تحل مسألة الشر وعلاقته بالخالق، وهي المسألة التي حار فيها رجال الأديان الموحدة[1]، لا الأديان الثنوية، وأن المانوية أيضًا هي التي استطاعت في نظره أن تحل مسألة أخرى من مسائل الدين وهي (القول بحرية الإرادة) وغير ذلك.

وافترض الأستاذ غبرائيلي في مقاله هذا فرضين للتوفيق بين إيمان ابن المقفع بالمانوية من جهة، وبين شكه في بقية الأديان ـ ومنها الإسلام والمزدكية ـ من جهة ثانية: «أولها» نقلي بسيط وهو قول البيروني عن ابن المقفع إنه أضاف إلى كتاب كليلة ودمنة باب برزويه «قاصدًا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية». «وثانيهما» وهو الأرجح ـ أن ابن المقفع تطور من الشك العقلي الذي عبر عنه في باب برزويه ـ إلى ما يسمى في اليونانية «باللوغوس الثنوي» الذي فسر به مسألة الشر وعلاقته بالخالق، وشرح به المسألة الأخرى وهي «حرية الإرادة»، ثم قال: ويجب رفض الاحتمال الثالث العكسي، وأعني به احتمال تطور ابن المقفع من المانوية إلى الشك ـ وذلك لأن دين آبائه لم يكن المانوية وإنما كان المزدكية.

ثم ختم غبرائيلي هذا المقال القيم بقوله: وفي ذلك رد على بعض

---

(١) الذي عليه أهل السنة في هذه المسألة أن الله خالق كل شيء، وأن الشر لا يكون في فعله تعالى، بل هو في مفعولاته، ولذلك لا يضاف الشر إليه تعالى، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة: «**والخير في يديك، والشر ليس إليك**».

ما قلناه في مصرع ابن المقفع: «ومن المؤكد أن ابن المقفع لم يمت لأنه زنديق ولكنه مات وهو زنديق»!].

ثم علّق الأستاذ حمزة على ذلك بقوله: [فخلاصة القول في أمر ابن المقفع من حيث زندقته: هي أنه مرت عليه تلك الفترة العصيبة من فترات حياته ـ وهي الفترة التي كان عقله فيها موزعًا بين كل هذه الأديان ـ يحن منها إلى دينه القديم، مسوقًا إلى ذلك بقلبه وعاطفته، ومقتنعًا في ذلك أيضًا بمبلغ الحضارة التي جلبها ذلك الدين القديم إلى قومه من الفرس القدماء. ثم ينتقل عقله إلى الإسلام فيحاول أن يناقش أصوله وقواعده، ويطيل النظر في آيات القرآن ومواعظه، ويفسر ما جاء به من القصص تفسيرًا يوضح لنا هذه الحيرة العظيمة التي كان يضطرب فيها أيما اضطراب. ثم ينتهي من كل ذلك إلى المانوية، فيخيل إليه أن فيها نجاته من كل هذا البلاء.

ومن يدري لعل الرجل بعد ذلك فكر في أن يشغل نفسه بشيء غير الدين، فشغل نفسه فعلاً بالإصلاح الاجتماعي.

ومهما يكن من شيء فالمدة التي قضاها ابن المقفع في الإسلام ـ صح إسلامه أم كذب ـ كانت مدة قصيرة ـ ومن يدري لو طال به العمر أي شرٍ كان يصيب الإسلام من شكوكه؟ وأي شرٍ كان يصيب المسلمين من اتصاله بالملاحدة وغيرهم من أفراد الطوائف الدينية الكثيرة كالمعتزلة والدهرية وغيرهما؟ (وبعد) فإذا كان ابن المقفع زنديقًا بهذا المعنى فكيف يتفق ذلك ونظرته إلى المثل الأعلى الذي قلنا إننا سنفهم فلسفته الدينية والاجتماعية على أساسه؟

الحق أن نظرة الرجل إلى هذا المثل الأعلى هي وحدها التي كانت تسبب له كل هذه الشكوك، فكأنه كان يستعرض الأديان كلها في ذهنه ويسأل نفسه دائمًا! أين الحق منها جميعًا؟ وأي هذه الأديان أقرب إلى الصواب منها جميعًا؟ وهكذا.

وما الذي كنت تنتظره من عقل متحضر كعقل صاحبنا مشحون بكل هذه الملل والآراء؟ أليس من شأنه أن يفاضل على هذا النحو؟ أليس من شأنه أن يخضع كل شيء لسلطان العقل؟

بلى ـ وذلك ما فعله ابن المقفع فيما يختص بالدين، وسنرى أيضًا أن ذلك ما يفعله الرجل فيما يختص بالاجتماع][١].

قلت: وأما الأستاذ محمد كرد علي فقد برأ ابن المقفع من كل تلك الشكوك والاتهامات ودافع بحماسه عن إيمانه! رادًا بذلك جميع الأخبار المتواترة التي استخرجها العلماء من سيرته ومؤلفاته والتي تحكي زندقته وبغضه وإعراضه عن القرآن.

فهو يقول مثلاً: [لقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته. وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال؟][٢] ويقول: [صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع مهما تقوّل عليه المتقولون]!!

قلت: أما إن الأستاذ قد خرج بهذا الرأي بعد تدبره لكلام ابن

---

(١) (٩٤ ـ ٩٥).

(٢) أمراء البيان (١٠٥)، دار الأمانة، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).

المقفع ـ كما يزعم ـ فإني في شك من ذلك! لأن هذا الكتاب (كليلة ودمنة) شاهد موثق على تلك الشكوك التي انتابت العلماء والباحثين من المسلمين وغيرهم في صحة إسلام الرجل. . كما سيأتي بعد قليل.

* * *

كليلة ودمنة:

يُصنف كتاب (كليلة ودمنة) ضمن (الفابولا) أو القصة على لسان الحيوان [والقصص الحيواني حكايات رمزية قصيرة ـ ربما طالت ـ تتضمن الأقوال والأفعال المعزوة إلى الحيوانات، والقصد منها تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك وإذاعة الآداب الراقية بأسلوب مؤثر شائق. فهي حكاية ذات مغزى خلقي وتعليمي تحكى على لسان الحيوان أو النبات، وتتضمن مضمونًا إنسانيًا شاملاً وقد يضيق هذا المضمون فيقتصر على مجتمع محدد من المجتمعات][١].

وهذه القصص غالبًا ما ترتبط [بالأساطير التي تعتمد على تفسير الظواهر الطبيعية وتعليلها، والتي تعرض بعض تقاليد المجتمعات في طورها الأول القديم][٢].

وهذه نظرة كاشفة في نقاط لكتاب (كليلة ودمنة) تبصّر القاريء بحقيقة نشأته وموضوعه وأبوابه.. وسأعتمد على النسخة التي حققها وقدّم لها الدكتور عبدالوهاب عزام، حيث وصفت بأنها [أكمل النسخ وأصحها وأقدمها].

١ ـ اختلف الباحثون في واضع هذا الكتاب (كليلة ودمنة).. هل

---

(١) كليلة ودمنة في الأدب العربي، ليلى حسن سعد الدين، مكتبة الرسالة، عمان (ص١٤٩).
(٢) المرجع السابق.

هو منقول من التراث الهندي كما توحي بذلك أبوابه ومحتواه؟.. أم أن ابن المقفع قد ابتدأه من تلقاء نفسه وأنشأه بهذه الصورة بغرض التفنن والأدب ولأغراض أخرى تأتي؟.. أم أنه ترجمه عن لغته الأولى (الفارسية) وزاد فيه وتصرّف؟

فقد قال ابن خلكان: [ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب (كليلة ودمنة) وقيل إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعربه ونقله إلى العربية وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه][(١)].

وقال ابن النديم في الفهرست (٦٠٦): [وكان ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم: سهل بن هارون بن راهيون وعبدالله بن المقفع وعلي بن داود... فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره: فقيل عملته الهند وخبر ذلك في صدر الكتاب، وقيل: عملته ملوك الإشكانية ونحلته الهند، وقيل: عملته الفرس ونحلته الهند، وقال قوم: إن الذي عمله بزر جمهر الحكيم].

وأما ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (٤١٣) فيذهب إلى أن ابن المقفع ترجمه. والمسعودي في مروج الذهب (١/ ٧٠) يقول عن دبشليم ملك الهند: [وهو الواضع لكتاب كليلة ودمنة الذي ينسب لابن المقفع].

وينقل محمد كرد علي عن الجاحظ قوله: [ونحن لا نستطيع أن

---

(١) (٦/ ١٥١).

نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيدالله وعبدالحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير]، ثم يعقب مبديًا رأيه قائلاً: [اختلفوا في كون ابن المقفع نقل حكاية كليلة ودمنة عن الفارسية والأرجح أنه كتبه مباشرة وقد أقرّ في المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقي عن غيره][1].

قلت: ومثله (أي كردعلي) صنع الدكتور عبداللطيف حمزة فذهب هذا المذهب كما سبق النقل عنه. وانظر كتابه (ص٨٢ و١٩٩ وما بعدها).

وأما الدكتورة ليلى سعد الدين في رسالتها (كليلة ودمنة في الأدب العربي) فتلخص لنا هذا الاختلاف بقولها: [أستطيع أن أجمع تلك الاختلافات في رأيين اثنين يمكن أن يقدما لنا صورة لافتة من صور الجدل أو النقاش الذي تسبب فيه ابن المقفع:

الرأي الأول: أن الكتاب ترجم من أصله الهندي إلى الفهلوية ومن هذه نقل إلى العربية.

والرأي الثاني: أن أغلب أصول الكتاب كانت حكايات متداولة في

---

(١) أمراء البيان (٩٠).

قلت: وفي رسالة الجاحظ لأحمد بن عبدالوهاب المسماة بـ (التربيع والتدوير) قوله: [ومَن صاحب كليلة ودمنة؟]. (ص٨٤)، طبعة بلات (١٩٥٥م).

أرض الهند ـ أقصد البصرة ـ فصاغها ابن المقفع مستندًا إلى حصيل واسع من فابولات الجاهليين والنبط والإغريق والهنود واليهود وغيرهم. والرأيان لهما ما يسندهما] وحجج الرأي الأول هي أن:

[١ ـ الكتاب هندي لأنه يخلو من الآثار المجوسية وعبادة النار وأخبار كيومرت أو جمشيد أو رستم أو الضحاك أو دارا أو غيرهم من ملوك الفرس وأبطالهم كما أنه يخلو من صنوف الحيوان الرمزية التي وجدت في كتب زرادشت، بينما تجد فيه بعض آثار الهند من دراويش ورهبان وألفاظ سنسكريتيه، مثال ذلك ما نقرأه في قصة (الأسود وملك الضفادع) و(الناسك وابن عرس) وما نراه في أمر اللبؤة الممتنعة عن أكل اللحم في باب (الأسود واللبؤة والشعهر) فهذه أصلها بوذي، وإن كان مثلها قد وجد في المانوية فيما بعد]. ثم تبدي الدكتورة رأيها قائلة:

[ويبدو أنني انسقت وراء الرأي الثاني الذي زعمت له الوجاهة، وخلاصته أن كتاب (كليلة ودمنة) من وضع ابن المقفع نفسه وليس مترجمًا عن البهلوية عن الهندية على الرغم من وجود البنش تنترا. وقد انفرد بهذا الرأي الدكتور أحمد كمال زكي، وقرر أن ما توصل إليه الباحثون من فصول البنش تنترا لا يقطع بصحة ترجمة الكتاب برغم ما بين الأصل والصورة كما يقولون من تشابه وإذا كان ثمة أسماء هندية في النسخة العربية مما يعد نقضًا بقضية التأليف فإن الدكتور زكي يرد على ذلك بأن الكتاب ابن البصرة وقد ألم بكل ما دار فيها من ثقافات أمم وتراثهم والبصرة بعدُ عمرت بالهنود وعرفت بأرض

الهند[١].

ولكن بم يُفسر [وجود الأعلام الهندية كدبشليم وبيدبا وبرزويه وبزرجمهر ممن وردت أسماؤهم في الكتاب؟ قد تكون هذه الشخصيات خيالية تشبه شخصيات أيسوب وهوميروس عند اليونان أو كيومرت وغيره عند الفرس، أو عنترة وأبي زيد الهلالي عند العامة بمصر، وتأليف كتاب كهذا لا يحتاج بالضرورة إلى وجود ملك ظالم، وإلى فيلسوف حكيم يعظه ويحذره. بل يكفي أن يكون الخيال الشعبي قد خلق كل ذلك مؤلفًا حولها الحكايات بعيدًا عن الاعتماد على حقيقة التاريخ الثابتة] (١٦٣ ـ ١٦٨).

قلت: وأما الدكتور عبدالوهاب عزام فيعارض هذا الرأي ويؤكد هندية الكتاب بقوله: [وقد شك بعض الناس في أمر الكتاب، ورددوا رواية ابن خلكان. وهذا كلام لا وزن له، فلم يبق ريب في أن الكتاب هندي الأصل، وقد عُثر على معظم أبوابه في الكتابين: «بنج تنترا» و«هتوبادشا» من الكتب الهندية».

وقد عَرف هذا من قبلُ العلامةُ المحقق أبوالريحان البيروني، فقال في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»: «ولهم (أي الهند) فنون من العلم أخر كثيرة، وكتب لا تكاد تحصى؛ ولكن لم أحط بها علمًا. وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تنترا. وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية

---

(١) الحياة الأدبية في البصرة (٤٥٦ ـ ٤٥٧).

والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصدًا تشكيك ضَعْفَى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية. وإذا كان متهمًا فيمازاد لم يخل عن مثله فيما نقل».

ليس لدينا إذن ما يدعو إلى الشك في الرواية المتداولة أن هذا الكتاب ترجم من الهندية إلى الفهلوية، ثم ترجم إلى العربية في القرن الثاني من الهجرة][١].

قلت: ومن اطلع على الكتاب (كليلة ودمنة) وتدبر مقدمته وفصوله وحكاياته فإنه يميل بمصاحبة الاطمئنان إلى رأي الدكتور عزام بأنه منقول من التراث الهندي ثم الفارسي ثم العربي لا كما يذهب إليه بعض الباحثين من أنه تراث فارسي أو أن ابن المقفع قد وضعه اعتمادًا على حصيلته الثقافية الواسعة لتراث الأقدمين.. ويرجح هذا القول أمور:

١ ـ أن هذا هو الظاهر من وضع الكتاب، ومن ادعى غيره فعليه إيراد الدليل الجازم. فابن المقفع يقول في مقدمته: [هذا كتاب كليلة ودمنة وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي التمسوا بها أبلغ ما يجدون من القول] (٣٧) ويقول: [وإنّا لما رأينا أهل فارس قد فسروا هذا الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا بابًا بالعربية ليكون له أسًا ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته

---

(١) كليلة ودمنة (٢٢).

وفهمه والاقتباس منه] (٤٥) ثم يذكر بعثة برزويه إلى بلاد الهند لإحضار هذا الكتاب إلى كسرى وما صادف في هذه الرحلة.

وأما فصول الكتاب الأخرى فتبدأ بالحوار التقليدي المشهور بين ملك الهند (دبشليم) والفيلسوف (بيدبا).

فالكتاب ظاهر من مقدمته وأسلوب عرضه أنه كما قال ابن المقفع أصل هندي قديم ترجمه الفرس رغبة في الاطلاع عليه ثم نقله هو إلى العربية.. ولو كان غير ذلك كما قيل لتصدى أحد العلماء أو الأدباء قديمًا لكشف هذا التلبيس والكذب من ابن المقفع.. لاسيما ممن يضاهون ابن المقفع في التوسع في معرفة التراث الشرقي القديم. ويؤكد ذلك أن الكتاب مشهور كما يُذكر، فلا يعقل أن تتم هذه الدعوى الكاذبة من ابن المقفع دون أن يعترضها معترض، وهم الذين أجهدوا أنفسهم في تتبع السرقات الشعرية اليسيرة التي لا يرعي لها الإنسان بالاً فضلاً عن هذا الأصل المشهور.

أما التشكيك في نسبة هذا الكتاب وترديد بعضهم له دون دليل أكيد وإنما هو التعويل على (قيل... وقيل) فلا يغني من الحق شيئًا.

٢ - ومما يشهد بذلك أيضًا اكتشاف بعض الأصول الهندية التي تعرف بـ (البنش تنترا) والتي تشترك مع كليلة ودمنة في وجود بعض الأبواب المتشابهة [وهذه الأبواب هي باب الأسد والثور، الحمامة المطوقة، البوم والغربان، القرد والغيلم، الناسك وابن عرس، وكلها في الكتاب الأول. والجرذ والسنور، الملك والطائر، الأسد وابن آوى، وكلها في الكتاب الثاني. وملك الفيران وقد عثر عليه في

الكتاب الثالث][1].

٣ ـ ومما يشهد بذلك أيضًا وجود بعض العبارات والعادات والصور الهندية التي تتخلل أسطر الكتاب.. وقلما ينتبه لها أحد لعدم بروزها.. وقد ظهر لي منها:

أ ـ صراع البراهمة والبوذيين كما سبق.

ب ـ انتشار الأسماء الهندية كما ذكرت الدكتورة ليلى سعد الدين وقد سبق.

جـ ـ بروز شخصية الناسك أو الرجل الزاهد وهي شخصية هندية تطغى على كثير من قصص الكتاب.

د ـ ورود فكرة تناسخ الأرواح كما في قصة (الفأرة التي تحولت إلى جارية) وهي فكرة هندية قديمة.

هـ ـ وجود عبادة هندية قديمة في قصة (الأرنب وملك الفيلة) وهي عبادة السجود للقمر في قول الأرنب فيروز للفيل [خذ بخرطومك من الماء واغسل وجهك واسجد للقمر، ففعل] (١٩٢).

وهذه العبادة القديمة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل[2] عندما عدد آراء الهند فقال: [عبدة القمر: زعموا أن القمر ملك من الملائكة

---

(١) (كليلة ودمنة..) ليلى سعد الدين (١٦٦).
(٢) (٣/ ٧٢٣).

يستحق التعظيم والعبادة..] وذكرها ابن النديم في الفهرست[١] والنويري في نهاية الأرب[٢].

ولا يقال بعد هذا كما قالت الدكتورة ليلى والدكتور أحمد زكي كما سبق بأن ابن المقفع قد استخدم ثقافته الواسعة في صياغة هذا الكتاب لأن الشواهد الهندية كثيرة ودقيقة في هذا الكتاب وبين أسطره بحيث لا يُصدّق ولا يُعقل أن يقوم ابن المقفع بترتيبها ونشرها كما رأيت ضمن أبواب الكتاب الكثيرة وبصورة تدل على رسوخها في أحداث هذا الكتاب.

وبرغم قوة هذا الرأي ومضمونه فلا يعني ذلكم أن ابن المقفع قد سلم من تهمة التصرف والزيادة في الكتاب.. بل إنه قد صنع ذلك لأغراض ستأتي. وقد تحقق هذا عند بعض العلماء.. فقد مرت معنا مقولة البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) والتي ذكر فيها أن ابن المقفع زاد باب (برزويه) [قاصدًا تشكيك ضعفى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية].

وقال عبداللطيف حمزة [الواقع أن ابن المقفع كان لابد له أن يتصرف كثيرًا في النسخة البهلوية القديمة وذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يحذف الجملة أو الفقرة بتمامها من النص البهلوي. وذهبوا إلى أنه كان يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر. والأمر قد احتاج فعلاً

---

(١) (٥٠٢).

(٢) (٥٧/١).

إلى أن يضيف ابن المقفع إلى الترجمة البهلوية هذه الأبواب:

١ ـ الباب الأول في مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي.

٢ ـ الباب الثالث في عرض الكتاب ترجمة عبدالله بن المقفع.

٣ ـ الباب السادس وهو باب الفحص عن أمر دمنه.

٤ ـ الباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف.

٥ ـ الباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين.

٦ ـ الباب الحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

وأستطيع أن أزيد على هذه الأبواب الستة بابًا سابعًا أميل إلى أنه كذلك من إضافة ابن المقفع.. وهو باب برزويه المتطبب ترجمة بزرجمهر][1].

قلت: ومما يشهد لتصرف ابن المقفع في هذا الكتاب ما لاحظه بعض العلماء من اختلاف بين نسخه العربية وسبب ذلك كما يقول عزام: [أنه كتاب أدبي ذو قصص ومواعظ يختلف الكتاب في إجمالها وتفصيلها وفي طريقة قصصها وأسلوب بيانها، فربما يبدو لمترجم أن يخالف من سبقه بالإجمال والتفصيل أو التأنق في العبارة وتيسيرها وهكذا...][2].

---

(١) (ص٢٠٠) وانظر (ص٨٢) أيضًا.

(٢) (٢٦).

عرض الكتاب:

ينقسم كتاب (كليلة ودمنة) إلى الأبواب الآتية:

[١ ـ باب عرض الكتاب لابن المقفع: وفيه تفصيل لمضمون كتاب كليلة ودمنة وللفوائد التي تجنى منه ثم إيضاح لكيفية مطالعة الكتاب حتى تجنى فوائده، ثم كلام على العلم وأهميته وضرورة إتمامه بالعمل لأن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر][١].

٢ ـ باب بعثة برزويه إلى الهند: فقد علم كسرى الفرس (أنوشروان ابن قياذ) بوجود هذا الكتاب في بلاد الهند فأراد استنساخه والاطلاع عليه [لأنه كان من أفضل ملوك فارس علمًا وحكمًا ورأيًا، وأكثرهم بحثًا عن مكامن العلم والأدب] (٥٠) ولما في هذا الكتاب من حكم ومعاني يحتاجها من يسوس الناس، فبعث لأجل ذلك أحد رؤساء الأطباء في مملكته وهو (برزويه بن آذرهربد). فذهب هذا الطبيب إلى بلاد الهند ونجح في مهمته تلك وعاد مبشرًا كسرى بما صنع. فأمر كسرى [بأن تفتح خزائن الذهب والفضة لبرزويه، وأمره أن يأخذ منها ما أحب] (٥٦)... فطلب برزويه من كسرى طلبًا أجابه إليه، وهو أن يطلب من بزرجمهر أن يصنع بابًا في رأس هذا الكتاب يذكر فيه حال برزويه الطبيب ليكون عبرة لمن بعده. ففعل بزرجمهر ما أمره به

---

(١) ابن المقفع ـ حنا فاخوري ـ ص(٤٠)، دار المعارف. ويلاحظ خلو هذا العرض من الآيات والأحاديث النبوية والاكتفاء بالأحاديث الأخلاقية العامة.

كسرى وكتب بابًا جديدًا ذكر فيه حال برزويه [وبحثه عن الأديان والتماسه طلب الحكمة] وهو الباب المسمى:

٣ ـ باب برزويه الطبيب: وهذا الباب شك في نسبته إلى الأصل الفارسي بعض العلماء كما عُلم وعزوه إلى ابن المقفع. فقد تلبس فيه ابن المقفع شخصية برزويه الطبيب وشرح حاله وموقفه من الأديان إلى أن آثر الحكمة عليها!، وكان هذا من الشواهد البينة للشك في إسلام ابن المقفع عند العلماء.

وإليك ـ أخي القارىء ـ ملخص لهذا الباب وما جاء فيه من شك وزندقة:

يبدأ برزويه حديثه بأن أباه كان من المقاتلة، وأمه كانت من بنات عظماء الزمازمة وفقهائهم في دينهم. وإنما شجعا ابنهما على تعلم الطب عندما صار له سبع سنين فاجتهد في ذلك. ثم إنه خير نفسه بين الأمور الأربعة التي يسعى لها الناس ويطلبونها وهي: [المال أم اللذات أم الصوت[1] أم أجر الآخرة] (٦٢) ولكنه فضل الطب على ذلك كله!! وأقبل على مداواة المرضى مزهدًا نفسه بأمر الدنياولذاتها ثم يقول:

[ثم نظرت في الطب فوجدت الطبيب لا يستطيع أن يداوي المريض بدواءٍ يُذهب عنه داءه، فلا يعود إليه أبدًا ذلك الداء ولا غيره من الأدواء التي هي مثله أو أشد منه. ووجدت عمل الآخرة هو الذي يسلم من الأذى حتى يبرأ صاحبها برءًا يأمن معه من الأدواء كلها.

---

(١) أي: الصيت، وهو الشهرة.

فاستخففت بالطب وأردت الدين. فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه عليّ أمر الدين؛ أما كتب الطب فلم أجد فيها لشيء من الأديان ذكرًا يدلني على أهداها وأصوبها. وأما الملل فكثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم، وآخرون أُكرهوا عليه حتى ولجوا فيه، وآخرون يبتغون به الدنيا. وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى، وأن من خالفه على خطأ وضلالة. والاختلاف بينهم كثير في أمر الخالق والخلق، ومبتدأ الأمر ومنتهاه، وما سوى ذلك. وكلٌّ على كل زارٍ، وله عدو وعليه عائب. فرأيت أن أُراجع علماء أهل كل ملة، وأناظرهم فأنظر فيما يصفون، لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين، غير مصدق بما لا أعرف، ولا تابع ما لا يبلغه عقلي. ففعلت ذلك وسألت ونظرت فلم أجد أحدًا من الأوائل يزيد على مدح دينه، وذم ما يخالفه من الأديان. فاستبان لي أنهم بالهوى يجيبون ويتكلمون، لا بالعدل. ولم أجد عند أحدٍ منهم صفةً تكون عدلاً يعرفها ذو العقل ويرضى بها. فقلت: أما إذا لم أُصب ثقةً آخذُ منه فإن الرأي أن ألزم دين آبائي. وهممت بذلك فلم أر لي فيه مخرجًا، ولا وجدت الثبوت على دين الآباء سبيلاً، ولا لي فيه حجة ولا عذراً. فأردت التفرغ للعود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها فعرض لي تخوف قرب الأجل وسرعته، وانقطاع الدنيا وفناؤها، وفكرت في ذلك و قلت: أما أنا فلعل موتي يكون أوشك من تقليب كفي ورجع جفني على عيني. و قد كنت أعمل أمورًا أرجو أن تكون من صالح الأعمال، لعل ترددي وتنقلي وبحثي عن الأديان يشغلني عن خير كنت أفعله، فيكون أجلي دون ما يطمح إليه أملي.

فلما خفت التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لهما، وأن أقتصر على كل شيء تشهد العقول أنه بر، ويتفق عليه كل أهل الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة والخيانة، ونفسي عن الغضب، ولساني عن الكذب وعن كل كلام فيه ضرر لأحد. وكففت عن أذى الناس والغيبة والبهتان. وحصنت فرجي عن النساء، والتمست من قلبي ألا أتمنى ما لغيري، ولا أحب له سوءًا، ولا أكذب بالبعث والحساب والقيامة والثواب والعقاب، وزايلت الأشرار بقلبي، وأحببت الصلحاء جهدي، ورأيت الصلاح ليس مثله قريب ولا صاحب، ومكتسبه ـ إذا وفق الله له ـ يسير، وأصبته خيرًا على أهله، وأبر من الآباء والأمهات. ووجدته يدل على الخير، ويبشر بالنصح، فعل الصديق بالصديق. فلم أزدد في أمر النسك تفكرًا إلا أحدث لي عليه حرصًا. فهممت أن أكون من أهله، ثم تخوفت ألا أصبر على عيشهم وأن تردني العادة التي جريت عليها وغذيت بها. ولم آمن، إن أنا خلعت الدنيا وأخذت في النسك، أن أضعف عنه، وأكون قد رفضت أمورًا كنت أعملها قبله.

فهبت النسك هيبة شديدة، فأحجمت عن الإقدام عليه، وخفت على نفسي من الضجر فيه وقلة الصبر عليه، ودعاني الهوى إلى الرضا بما كنت عليه من حالي في الدنيا، والثبوت عليها.

فلما فكرت في ذلك راجعت نفسي في اختيار النسك وخاصمتها فقلت: ما يجوز هذا أن أفر من الدنيا إلى النسك، إذا فكرت في شرورها وأحزانها، ثم أهرب منه إليها إذا تذكرت ما فيه من الضيق

والمشقة؛ فلا أزال في تصرف وفي تقلب لا أُبرِم رأيًا، ولا أعزم عليه، فصار أمري إلى الرضا بحالي، وإصلاح ما استطعت من عملي لمعادي، لعلي أصادف فيما أمامي زمانًا فيه دليل على هداي، وسلطانٌ على نفسي، وأعوانٌ على أمري. فأقمت على من وصفت من حالي] اهـ كلامه باختصار.

قلت: فهو قد شك في جدوى جميع الأديان في عصره ومنها الأديان السماوية بدعوى أن كل أهل دين يتعصبون لدينهم ويذمون ما عداه وهذا ما دعاه إلى الثبات على حاله الأولى والاقتصار كما يقول [على كل شيء تشهد العقول أنه برّ ويتفق عليه كل أهل الأديان..] إلى آخر كلامه السابق، أي أنه يكتفي بالأخلاق الشريفة التي يدعو لها أهل كل دين باتفاق كالعزة والكرم والنصرة والشجاعة والعفة و... إلخ. وهذا المبدأ في حياتنا المعاصرة يسمى بالمبدأ الإنساني الذي لا يربط صاحبه نفسه بدين من الأديان وإنما يكتفي بما تشهد بصحته العقول، أو أن الناس إخوة فيما بينهم لا يمايز بينهم مبدأ ولا مذهب.

وهذا المبدأ الإنساني العقلي الذي ارتضاه ابن المقفع وسار على نهجه هو في نظري الذي جمع في شخصيته: الفضيلة والزندقة فهو زنديق فاضل! أي أن العلماء الذين وصفوه بالفضيلة هم أنفسهم الذين وصموه بالزندقة.. وليس في ذلك تناقض كما قد يتوهم أناس منا.. لأن الفضيلة جاءته من اتباع الصفات والأخلاق التي يقبلها العقل ويتفق عليها جميع أهل الأديان كما يقول... وأما الزندقة فأتته من مخالفته لشريعة الإسلام التي تميز بها عن سائر الشرائع، وعباداته التي

لم يتضح للعقل ـ بعدُ ـ الحكمة من خصائصها وصفاتها. فلذا اجتمعت في شخصيته الفضيلة والزندقة دون تعارض، وهذا المذهب الإنساني العام قد جرّ عقولاً كثيرة إلى اتباعه. . لاسيما ممن يتوهم أنه صاحب عقل وذكاء ولا يقبل أن يتبع العامة في دياناتهم ومذاهبهم التي اختلفوا فيها وتفرقت بهم السبل لأجلها. . فهو يدع ذلك كله ويؤثر السلامة في دنياه مبتعدًا عن مواطن الخلاف والجدل والصراع بأنواعه. . متوهمًا أنه يستطيع بهذا المسلك أن يجمع حسنات كل فريق وطائفة وأن يرفع الخلاف من ظهر الأرض بأن يُجمع الناس على هذا المذهب العام.

وتجد أصحاب هذا المذهب في تاريخنا موزعين بين طائفتي الفلاسفة والشعراء لأنهما أكثر الطوائف خوضًا في مجالات الفكر، وأكثر الطوائف إعجاباً بما هي عليه.

وليس هذا موضع ضرب الأمثلة والشواهد. . فله مواضع آخَر.

ولكن هل يرضى الله تعالى بهذا؟ وهل يقبل الإسلام رأي أصحاب هذا المنهج؟ . . . لا.

فالإسلام لا يكتفي بهذه الأخلاق والصفات الشريفة الحسنة دون الإيمان برسالته ومتطلباتها لأنه الدين الذي اختاره الله لجميع البشر منهاجًا أخيرًا لا ينسخ ولا يبدل ولا يقبل عنده غيره. فمن جاء بغيره فقد خالف ما أراده الله وارتضاه لعباده، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩].

فهذه الصفات والأخلاق لوحدها لا تكفي وإلاّ لقبلت من غير ابن المقفع وممن فاقه في التحلي بها.. فهذا ابن جدعان رجل يعيش في الجاهلية ويتصف بصفات وأخلاق شريفة يضرب بها المثل عند الفخر.. مما جعل عائشة تتوهم أن هذه المزايا والصفات لا شك نافعته عند الله يوم القيامة، فقال لها رسول الله ﷺ: **«لا ينفعه، إنه لم يقاتل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**(١).

أي أن كل هذه الأعمال لن تنفعه دون أن تضم إلى عقيدة الإسلام وشريعته. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٣].

بقي أن يقال: هذا الحكم السابق على القول بأن واضع هذا الباب هو ابن المقفع.. وهي شكوك من بعض العلماء لم تثبت بدليل يقيني وإنما الظاهر لنا أنه من كلام برزويه الطبيب الفارسي وهذا كله قبل الإسلام.. فلماذا تحاكمونه به؟

فيقال: أما إن كان القائل ابن المقفع فكما علمت.

وأما إن كان برزويه الطبيب فيقع اللوم والعتاب على ابن المقفع أيضًا لأنه نقل كلامه وتردده وحيرته وشكه في الأديان لعامة المسلمين الذين سيدور هذا الكتاب بينهم.. فكان الأولى به وهو الذي أسلم ـ كما يزعم ـ أن يجتنب ترجمة ما يمس عقيدة آحاد المسلمين ويدعوهم إلى الحيرة والريبة في مسائل الدين.

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٣٦).

فإن قيل: إنما هو ناقل أمين وناقل الكفر ليس بكافر.. وهكذا ناقل الحيرة والاضطراب ليس بمتحير ولا مضطرب في أمره.

فأقول: نعم ناقل الكفر ليس بكافر، ولكن بشرط أن ينقله ليذمه أو يعقب عليه.. وابن المقفع لم يصنع شيئًا من هذا وإنما أخذ الكلام بعلله ثم عرضه لنا بأسلوب أدبي جميل مشوق يؤثر في لب الرجل العاقل فضلاً عن ضعفاء العقول من الصبية والفتيان الذين تهمهم كتب الحكايات وأضرابها. ولا شك أن صنيعه هذا يجعل العقل والقلب يميلان إلى ما تخوف منه بعض العلماء في أمر ابن المقفع.

٤ ـ **باب الأسد والثور**: القصة الرئيسية في هذا الباب هي قصة (كليلة ودمنه) وبها سُمي الكتاب. وكليلة ودمنه هما ابنا آوى يعيشان في الغابة بجوار صاحب السلطة (الأسد).. فيصف هذا الباب ما يدور في بلاط الأسد من مكايد واستماعه لوشاية (دمنه) في الثور الذي لازمه وأحبه.. إلى أن قتله الأسد بتلك الوشاية ثم ندم على ذلك.

٥ ـ **باب الفحص عن أمر دمنه**: يصف هذا الباب لنا كيف انكشف أمر دمنه إلى أن حوكم ثم قتل. وهذا الباب كما قال الدكتور حمزة: [لا يمكن أن يكون إلا من إضافة رجل إسلامي كابن المقفع أراد بها أن يلائم بين أغراضه المختلفة كما أراد بها أن يخاطب العقل العربي في ذلك الوقت، وهو العقل الذي عرف ابن المقفع جيدًا أنه كان متأثرًا بمباديء الإسلام. ومما يثبت ذلك أن باب (الأسد والثور) في النسخة السريانية القديمة ليس في نهايته شيء يشير إلى محاكمة دمنة، أو شيء يشير إلى عقوبته على سعيه بالفساد، وأن باب (الأسد والثور) أيضًا

وجد في نسخة (الباتش تنترا) أنه إنما ينتهي بما يدل على أن الأسد لم يفكر في أمر (شنزبه) بل إنه أفسح الطريق لدمنه دون الثور واستوزره][١].

قلت: وهذا الباب وإن قيل إنه من إضافة ابن المقفع وهو الأقرب ـ لما علمت ـ فإنه لا يشهد بصدق إسلام الرجل فإن معاقبة المفسد أمر تشهد بحسنه العقول البشرية.. فهو تأكيد لمذهب الرجل العقلي السابق.. أي أن هذا الأمر (معاقبة المفسد) لا يميز الإسلام عن غيره من الديانات والمذاهب فالكل متفق عليه. فلا يتخذ دليلاً في محل الخلاف.

الأبواب السابقة تعد أبواب الكتاب الرئيسية، وأما ما بعدها من أبواب فهي كالتالي:

• **باب الحمامة المطوقة**: يدور حول الصداقة وإمكانها بين المتنافرين.

• باب البوم والغربان: يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك وبين الأمم، واستطلاع أخبار العدو. ويوضح مكان الحيلة من السياسة وكيف يعامل العدو، وكيف يجب اللجوء معه إلى الحذر مهما أظهر من تضرع وتملق.

• **باب القرد والغيلم**: يمثل الغباوة وكيف يظفر معها صاحب الحاجة بحاجته فيضيعها، والفطنة وكيف يقع صاحبها في ورطة

---

(١) (٢٠٢).

فيتخلص منها.

• **باب الناسك وابن عرس**: يمثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا بعيد نظر، فهو أبدًا نادم آسف.

• **باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند**: هو باب هندي بوذي يمثل العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة. وهو قسمان: قصة الأحلام وتأويلها، والمحاورة بين الملك ووزيره. وفي هذا الباب يسأل الملك الفيلسوف عما إذا عمل به، كرُم على رعيته، وثبت ملكه وحفظ أرضه. فيجيبه الفيلسوف أن أفضل ما حفظ به الملك ملكه، وثبت به سلطانه وكرم به نفسه هو الحلم والعقل مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم.

• **باب ملك الجرذان**: يبين أهمية المشورة والنصح في الحياة، فربَّ مشورة تخلص من شدائد.

• **باب السنور والجرذ**: يبين الحكمة في التماس الموالاة والصلح أحيانًا، ويوضح الفرق بين الصداقة الحقيقية وتلك التي تبنى على الحاجة والضيق.

• **باب الملك والطائر فنزة**: يدور على أن ذوي الأوتار[1] ينبغي ألا يثق بعضهم ببعض، وأن يتقي بعضهم بعضًا.

• **باب الأسد وابن آوى**: يمثل الرجوع إلى الصداقة بعد العداوة.

---

(١) أصحاب العداوات.

وعلاقة الملوك فيما بينهم وبين جلسائهم، ومفاد ذلك أن من واجب الملك أن يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم أو ظلم، ولا سيما إذا كان ذلك الشخص ممن يستعان به ويوثق برأيه، فالمُلك لا يستطاع إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة.

• **باب السائح والصواغ:** يمثل صنع المعروف إلى غير أهله، ويبين من يستحق المعروف والثقة.

باب ابن الملك وأصحابه: يمثل أن كل ما يجري على الناس إنما هو قضاء الله وقدره.

• **باب اللبؤة والشعهر**[١]: يمثل الإنسان الذي يدع ضر غيره لما يصيبه من الضر، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان.

• **باب الناسك والضيف:** يمثل من يترك ما في يده ليطلب غيره فيضيع هذا وذاك.

• **باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين:** يمثل الرجل الذي ينفع الآخرين برأيه وهو لا ينتفع به][٢].

---

(١) ضرب من بنات آوى.

(٢) ابن المقفع لفاخوري (٤١ ـ ٤٢).

عملي:

قمت بتهذيب قصص الكتاب وهو الهدف الرئيسي الذي كان نصب عيني عند أول فكرة حول هذا الكتاب لما رأيت من انتشاره وشهرته بين الناس.

وهذا التهذيب يشمل الآتي:

أ ـ اختصار قصصه والاقتصار على ما أراه يفي بالمقصود دون تكرار ممل أو استطرادات عقلية يدور معظمها حول الأخلاق.

ب ـ تجميع أطراف القصص وعرضها للقاريء واحدة تلو الأخرى فالكتاب كما يعلم من اطلع عليه تتداخل قصصه فيما بينها تداخلاً مرهقًا فالقصة الواحدة تحتوي ضمن أحداثها عدة قصص ينبغي للقاريء أن يتنقل بينها حتى يصل إلى خاتمة القصة الأصل.

جـ ـ حذف أحد أبواب الكتاب لعدم تماشيه مع منهج الإسلام وهو باب (إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند) لأنه كما سبق باب يحكي صراع البراهمة والبوذية من حول الملك. وهو أمر لا يفيد القاريء المسلم الاطلاع عليه بل فيه ترويج ونشر لوثنيتهم.

د ـ حذف بعض القصص الفرعية القصيرة والتي تحوي: وصف العلاقة الآثمة بين المرأة المتزوجة وخليلها أو عشيقها! وهي كثيرة نسبة إلى هذا الكتاب. وكان الأولى بابن المقفع ـ كما سبق ـ حذفها أو اتباعها بتعليق يكشف عاقبة هذا العمل.

وهذه القصص هي:

قصة الرجل المتردد (٦٦)، وقصة المرأة الفاجرة وجاريتها (٩٤)، وقصة امرأة الإسكاف وجارتها (٩٥)، وقصة المرأة وعبدها (١٤٠)، وقصة الحراث وامرأتيه العاريتين (١٤٩)، وقصة المرزبان وامرأته والبازيار (١٥٣)، وقصة التاجر وامرأته والسارق (٢٠٠)، وقصة النجار وامرأته وخليلها (٢٠٤).

هـ - حذف قصة (الناسك والفأرة التي تحولت إلى جارية) (٢٠٦) لكونها ترمز إلى فكرة تناسخ الأرواح وهي فكرة هندية قديمة حيث تتحول الفأرة إلى جارية جميلة.. ثم تعود إلى أصلها الأول[1].

و - إبدال عدد من الكلمات والعبارات التي لا تتناسب والحس الإسلامي الصحيح.. أي أنها إما أن تخالف نصًا شرعيًا أو أنها تلقي على القصة ظلالاً غير شرعية، مثلا:

١ - تتردد كلمة (الناسك) في هذا الكتاب كثيرًا.. بل تتصدر أحيانًا أسماء أبوابه كما في باب (الناسك والضيف)، وأما قصصه فمثل (الناسك واللص)، (الجرذ والناسك والضيف)، (الناسك والمكره والعريض)، (الناسك واللص والشيطان)، (الناسك والفأرة التي

---

(١) وكذلك قصة (الأرنب والفيل) لما سبق. و(التي باعت سمسمًا مقشورًا بغير مقشور) لعدم فائدتها.

تحولت إلى جارية)، (الناسك وابن عرس)، (الناسك وجرة السمن والعسل).

وكلمة الناسك مأخوذة من النسك وهو العبادة والطاعة وكل ما يقرب إلي الله كما قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج، الآية: ٦٧]، وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢]، والرجل الناسك أي العابد كما في (لسان العرب)، فلا ضير من إطلاق هذه الصفة على أحدٍ من المسلمين كما قال القائل في أحمد بن حنبل:

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة
وبحب أحمد يعرف المتنسك[١]

وقال غيره يوصي ابنًا له:

أحسن وصاحب كلَّ قارٍ ناسكٍ
حسن التعهد للصلاة صؤم
من ضرب حمادٍ هناك ومسعرٍ
وسماكٍ العتكي وابن حكيم[٢]

فكلمة (ناسك) أطلقت قديمًا على صاحب الطاعة والعبادة،

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي (٥٩٧).
(٢) الأغاني (١٨/٨٦).

الملازم لها، الموسوم بها. لكنها لم تُؤثر كثيرًا في المصادر الإسلامية وتاريخ السلف، وإنما المأثور في مصادرنا الإسلامية هو الألفاظ الشرعية المعتادة كالمؤمن والتقي والمحسن والمسلم والصالح... إلخ.

وقد اخترت استبدال كلمة (ناسك) في هذا الكتاب بغيرها لهذه الأسباب السابقة أولاً.. ولأن هذه الكلمة (ناسك) تلقي على القصة ظلالاً هندية بوذية لما احتف بها من القرائن. فمصنف هذا الكتاب يعني بالناسك: الهندي العابد الزاهد، الذي جاهد نفسه بالرياضات الروحية وأصناف العبادات والاعتكاف وحرّم عليها ما أحله الله ليبلغ ـ كما يزعم ـ المرتبة القصوى في الإشراق والروحانية وترفع النفس عن عالم الماديات.. وكل هذا مصادم لشريعة الإسلام التي تحارب مثل هذه الآصار والقيود وتجعل حياة المسلم متوازنة في كافة جوانبها، فلا يطغى جانب على آخر.

فلذلك استبدلت هذه الكلمة.

٢ ـ ورد في قصة (المصدّق المخدوع) قول صاحب البيت لامرأته: [كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعي أصحابي حتى أعلو ظهر البيت الذي أريد أن أسرقه، فأنتهي إلى الكوة التي يدخل منها الضوء إلى البيت فأرقي بهذه الرقية وهي (شولم، شولم) سبع مرات..].

ومعلوم أن هذا ليس موضعًا للرقية فضلاً عن كونها غير شرعية

لاحتوائها على كلمات لا يُفهم معناها. فلذا استبدلتها بقولي: [فأنادي بهذا القول: شولم، شولم] حيث جعلتها على سبيل التهكم باللصوص المخدوعين المصدقين والسخرية بهم.

وأيضًا استبدلت بعض الكلمات التي قد يغمض معناهاعلى الصفات مما قد يلاحظه المتأمل في هذا التهذيب مقارنة بالأصل.

ز ـ ذيلت كل قصة تذكر في هذا التهذيب بتعليق إسلامي في كلمات معدودة لئلا يتضخم التهذيب أولاً، ولئلا يطغى جانب التعليق على جانب القصص، والاكتفاء بقليل الكلام الذي يؤدي إلى تحوير القصة إلى الهدف الإسلامي، مما يجعل ذهن القاريء ـ الصغير خاصة ـ يربط بين محتويات هذه القصص والنصوص الإسلامية فتتم له الفائدة إضافة إلى المتعة التي تحويها تلك القصص.

أخيرًا.. هذه لبنة جديدة تُضم إلى (سلسلة التصفية) التي تهدف: إعادة النظر في كثير من تراثنا المشهور، ومصادرنا القديمة، وفق نظرة إسلامية صافية.. لعلها تنفع الأجيال القادمة.

* * *

القسم الثاني:

القصص

كليلة ودمنة

كان بأرض «دستابند» تاجر مكثر وكان له بنون. فلما أدركوا أسرعوا في مال أبيهم، ولم يحترفوا حرفة ترد عليه وعليهم. فلامهم أبوهم ووعظهم. ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم. وانطلق كبيرهم متوجهًا بتجارة له إلى أرض يقال لها «مثور» فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عجله يجرها ثوران يدعى أحدهما «شنزبة» والآخر «نندبه» فوحل شنزبة في ذلك الوحل. فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعدما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة. وخلّف ابن التاجر عنده رجلاً وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد شفي وصلح لحقه به. فلما كان من غد ذلك اليوم ملّ الرجل من حاله وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه لم يصلح.

أما شنزبة فقد شفي بعدما فارقه الرجل فلم يزل يدب حتى أتى مرجًا خصيبًا كثير الماء والعشب فعاش فيه مرتاحًا هنيئًا.

ولم يلبث أن سمن وكثر شحمه وجعل يحك بقرنيه الأرض ويخور ويرفع صوته بالخوار. وكان بقربه أسد يقال له «بنكله» وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك. وكان مزهوًا متكبرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، فلما سمع الأسد خوار الثور ـ ولم يكن رأى الثور قط ـ رعب منه وكره أن يفطن لذلك جنده فلم يبرح مكانه. وكان فيما معه ابنا آوى[١] يقال لأحدهما «كليلة» وللآخر

---

(١) ابن آوى حيوان يشبه الذئب وهو أصغر حجمًا منه.

«دمنة» وكانا ذَوَي دهاء وأدب. وكان دمنة أشرهما نفسًا وأبعدهما همة وأقلهما رضًا بحاله. ولم يكن الأسد عرفهما. فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الأسد مقيمًا في مكانه لا يتجول ولا ينشط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأنك والمسألة عما ليس لك ولا يعنيك؟ أما نحن فحالنا صدق ونحن على باب الأسد واجدون ما نأكل.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه فقال الأسد للمقربين إليه: من هذا؟ قالوا: ابن فلان. قال الأسد: قد كنت أعرف أباه. ثم قال له: أين كنت تكون؟ قال دمنة: لم أزل بباب الملك مرابطًا رجاء أن يحضر أمر أعين الملك فيه برأيي ونفسي فإن باب الملك يكثر فيه الأمور التي ربما احتيج فيها إلى من لا نباهة له، وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره. فإن العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حك أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حري بأن يكون ذلك عنده وينتفع به. فلما سمع الأسد كلامه أعجب به ورجا أن يكون عنده نصيحة ورأي. فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به قال: إني رأيت الملك أقام منذ زمان في مكان واحد لا يبرح منه. ففيم ذلك؟ قال له الأسد ـ وكره أن يعلم منه دمنة جبنًا ـ: لم يكن ذلك لبأس. فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خوارًا شديدًا. فهيج الأسد على أن يخبر دمنة بما في نفسه. فقال: هذا الصوت الذي تسمع ما أدري ما هو. غير أنه خليق أن تكون الجثة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان.

قال دمنة: هل راب الملك شيء غير هذا؟

قال الأسد: لم يكن غير هذا.

فقال دمنة: إن شاء الملك أن يبعثني نحوه وليقم مكانه حتى أرجع إليه ببيان ما يحب أن يعلم منه. فوافق ذلك الأسد. وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه الثور «شنزبة».

فلما عاد دمنة دخل على الأسد. فقال له الأسد: ما صنعت وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثورًا وهو صاحب الصوت الذي سمعت.

قال الأسد: فما حاله وشدته؟ قال: لا شدة له، قد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئًا.

فقال الأسد: لا يغرنك ذلك منه ولا تضعنّ ذلك على الضعف. فإن الريح لا تضر بصغير الحشيش ولا تحطمه وهي تحطم الشجر. وكذلك الصناديد إنما يصمد بعضها لبعض.

قال دمنة: لا يهابن الملك أمره، ولا يكبرن في صدره شيئًا منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبدًا سامعًا مطيعًا. ففرح الأسد بذلك وقال له: دونك.

ثم إن دمنة انطلق إلى شنزبة فقال له غير هائب ولا متعتع: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك وأمرني إن أنت عجلت الإقبال عليه طائعًا أن أؤمّنك على نفسك وما سلف منك من الذنب في التأخر عنه والترك للقائه. وإن تأخرت أن أعجل الرجعة إليه فأخبره بذلك.

قال شنزبة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليّ وأين هو؟

قال دمنة: هو ملك السباع ومعه جند كثير منهم. فرعب الثور من ذلك وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهدًا أو أخذت لي منه الأمان أقبلت معك.

فأعطاه منه ما سأل من ذلك.

ثم أقبلا جميعًا حتى دخلا على الأسد. فأحسن الأسد مسئله شنزبة وألطفه وقال له: متى قدمت هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟

فقص عليه أمره.

فقال له الأسد: الزمني فإني مكرمك ومحسن إليك. فدعا له شنزبة وأثنى عليه.

ثم إن الأسد قرّب شنزبة وأدناه وكرمه وآنس به رأيًا وعقلاً فائتمنه على أسراره وشاوره في أموره، ولم تزده الأيام إلا إعجابًا به، ورغبة فيه، وتقربًا له، حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة.

فلما رأى دمنة أن الملك قد استخص شنزبة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحب رأيه وخلوته وأنسه ولهوه، اشتد ذلك عليه، فشكا ذلك إلى كليلة أخيه.

فقال كليلة: إن قدرت على هلاك شنزبة في غير مشقة تدخل على الأسد فافعل، فإن مكانه قد أضر بي وبك وبغيرنا من الجند. وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينغص الأسد فلا تشترين ذلك بذلك، فإنه غدر مني ومنك ولؤم وكفر.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا ثم أتاه على خلوته متحازنًا، فقال له الأسد: ما حبسك عني منذ مدة لم أرك، أذلك لخير؟

قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن.

قال الأسد: وما ذلك؟

قال دمنة: هو كلام فظيع.

قال الأسد: فأخبرني.

قال دمنة: حدثني الصادق الأمين عندي: أن شنزبة خلا برؤوس جندك فقال لهم: قد عرفت الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وأنه كائن لي وله شأن، وأنه لما بلغني هذا عرفت أن شنزبة خئون غادر، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظير نفسك. فهو اليوم يظن أنه مثلك وأنك إن زلت عن مكانك صار له ملكك.

فقال الأسد: قد فهمت ما ذكرت، ولكن لا أظن شنزبة يبغيني سوءًا ولم أفعله به. قال دمنة: إلا أنه لا يحمله على ذلك إلا ذلك. فإنك لم تدع خيرًا إلا ما صنعته به. ولا مرتبة شريفة إلا بلغته إياها. فلم يبق شيء يسمو إليه إلا مكانك.

قال الأسد: لو كان شنزبة لي عدوًا كما تذكر لم يقدر على ضري، وكيف يستطيع ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم، وإنما هو لي طعام وليس عليَّ منه مكروه.

قال دمنة: فلا يدخلن عليك شنزبة إلا وأنت مستعد له، واحذر أن يصيب منك غرة، فإني لا أحسبك لو قد نظرت إليه حين يدخل عليك إلا ستعرف أنه قد هم بعظيمة. ومن علامات ذلك أن ترى لونه متغيرًا وأوصاله ترتعد. وهو يلتفت يمينًا وشمالاً. ويهيء قرنيه كأنه يهم بالنطح.

قال الأسد: سآخذ بمشورتك في ذلك. ولئن أنا رأيته على ما وصفت فليس في أمره عندي شك.

ثم قال دمنة للأسد: وإلا آتي شنزبة فأنظر إلى حاله وأسمع كلامه، لعلي أطلع على بعض أمره فأعلم به الملك؟

قال الأسد: شأنك وما تريده.

فانطلق دمنة إلى الثور فدخل عليه كالحزين المكتئب، فرحب به شنزبة وقال: لم أرك منذ أيام. فما حبسك؟ أهو خير؟

قال دمنة: ومتى كان من أهل الخير من لا يملك نفسه، ومن إنما أمره بيد غيره ممن لا يوثق به، ومن لا ينفك في خوف منه حتى ما من ساعة يأمنه فيها على نفسه.

فقال شنزبة: فما ذلك؟

قال دمنة: حدثني الصادق الأمين أن الأسد قال لبعض أصحابه: لقد أعجبني سمن شنزبة وليست بي حاجة إليه، وما أراني إلا آكله ومطعمكم منه. فلما بلغني ذلك عرفت كفره وغدره. وأقبلت إليك لأحذرك لتحتال في نجاتك في رفق. فماذا تريد أن تصنع؟

قال شنزبة: ما أرى إلا أن أجاهده.

قال دمنة: ليس ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه فإنه إن فعل ذلك وهلك كان قد أضاع نفسه وأثم، وإن ظفر كان من قبل القضاء. ولكن ذا العقل يجعل القتال آخر حيلة.

فقال شنزبة: ما أنا بناصب للأسد العداوة ولا متغير له عما كنت عليه حتى يبدو لي ما أتخوف منه فأغالبه. فكَرِه ذلك دمنة وظن أن الأسد إن لم ير من شنزبة العلامات التي قد وصف له اتهمه فقال: انطلق، سيتبين لك إن دخلت عليه آيات ما ذكرت لك.

قال شنزبة: وكيف أعرف ذلك؟ فقال دمنة: إن رأيت الأسد حين تدخل عليه ينتصب مقعيًا، ويرفع صدره، ويسدد إليك بصره، ويضرب بذنبه ويتلمظ[1] فاعلم أنه يريد قتلك فاحذره ولا تغتر به.

فقال شنزبة: لئن أنا عاينت منه ما وصفت فما في أمره عندي شك.

فذهب شنزبة فدخل على الأسد فرآه على حال ما ذكر دمنة ووصفه له، فاستيقن بالهلكة.

ونظر إليه الأسد فعرف ما كان دمنة ذكر له منه، فواثبه، فاقتتلا قتالاً شديدًا سالت منه الدماء بينهما، فقتله الأسد.

ولكنه بعد أيام حزن على ذلك وظن أنه قد تعجل. فقال له دمنة: قد أظفرك الله أيها الملك بعدوك فما الذي تهتم له ويحزنك؟

---

(١) يحرك شفتيه.

فقال الأسد: لقد أشفقت على قتل شنزبة لعقله وكرم خلقه.

فقال دمنة: لا تفعلن ذلك أيها الملك ولا ترحم من تخافه.

مرت الأيام بعد ذلك فخرج النمر ذات يوم ـ وكان موضع سر الأسد ـ يطلب قبسًا، فاضطره المطر إلى منزل كليلة ودمنة فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة ويلومه على سوء رأيه وصنيعه، وما ارتكب من شنزبة في غير ذنب أتاه إليه، فكان يقول له: إن الذي أتيت من النميمة والخداع للأسد، ولست بناجٍ منه إلا بأكثر مما يعاقب به أهل الذنوب.

فلما سمع النمر قول كليلة رجع فدخل على أم الأسد فحدثها الحديث الذي سمع كله.

فلما أصبحت انطلقت إلى ابنها فرأته حزينًا كئيبًا، فلما عَاينت ذلك منه عرفت أنه ليس إلاَّ على شنزبة. فقالت: حدثني الصادق الأمين عندك أن دمنة لم يركب من شنزبة الذي ركب من تحميله إياك عليه إلا لحسده إياه على منزلته منك، ومكانه عندك.

فقال الأسد: ومن خبرك بهذا؟

فقالت: قد استحفظنيه والمستكتم مؤتمن. وأمرته أن يعاقب هذا الفاجر عقوبة بليغة.

فلما سمع الأسد ذلك نادى في جموعه، فحضروا، وأتي بدمنة ونكس الأسد مستحييًا مما ركب من قتل شنزبة. فلما رأى دمنة ذلك قال لبعض من يليه متجاهلاً: مالي أرى الملك مكتئبًا مهمومًا؟ هل

حدث أمر جمعكم له؟ فلما سمعت أم الأسد ذلك قالت مجيبة له: الذي كرب الملك بقاؤك حيًا إلى اليوم أيها الغادر الكذوب!

قال دمنة: وما الذي جنيت مما يستحل به قتلي، ويكرب الملك بقائي؟

قالت أم الأسد: أعظم الحدث حدثك، وأشد الخيانة خيانتك واستجهالك الملك، وقتلك البريء من وزرائه.

فأخذ دمنة يعتذر.

فأمر الأسد عند ذلك بدمنة فقُذف في عنقه طوق، ثم حُبس، وأُمر بالنظر في أمره. فقالت أم الأسد: لقد بلغني عن هذا الفاجر الكذاب شر ما يقال عن أحد وتتابعت الألسن عليه، وهو له منكر.

وأما كليلة فقد زار دمنة في سجنه وأنبه على صنيعه الذي انتهى به إلى هذا الحال المؤسف.

وكان في السجن سَبُع. وكان نائمًا قريبًا من كليلة ودمنة حيث اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامهما، فسمع جميع ما تحاورا فيه وتراجعاه بينهما، فحفظ ذلك وكتمه.

فأمر الأسدُ النمرَ والقاضي أن يجلسا ويدعوا بدمنة على رؤوس الجند ثم يسألا عنه ويرفعا إليه الذي يذكرون لهما منه، وجوابه إياهم فيه، ولا يدعا من ذلك شيئًا إلا رفعاه إليه.

فخرجا لذلك وجمعا الجند، وبعثوا إلى دمنة فأُحْضِر، وحاكموه وهو منكرٌ التهمة.

وبينما هم على هذه الحال، أرسل السَبُع المسجون بأن عنده شهادة، فبعث إليه الأسد، فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتل الأسد الثور، وإقرار دمنة بذلك.

فلما كررت أم الأسد ذلك على الأسد وكلمته فيه، ووقع في نفسه أن دمنة حمله على زيغ، أمر به فقُتِل شر قتلة.

تعليق:

قد اجتمعت في «دمنة» صفتان قبيحتان.. حذرنا منهما الإسلام، فاستحق لأجلهما العقاب العادل.

أولاهما: صفة الحسد التي حملته على كراهية الثور بعد أن كان هو السبب في تقريبه من الأسد. قال ﷺ: «**لا تحاسدوا**»[1].

وثانيهما: صفة النميمة بين الناس.. وهي من أكثر الصفات هدمًا للأسر والمجتمعات، ونشرًا للبغضاء بين المسلمين. قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[2] أي نمام.

فلنبتعد عن هاتين الصفتين، ولنستبدلهما بصفتي المودة وقول الخير.

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١١).
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧١).

الرجـل والكنـز

رأى رجل في بعض الصحاري كنزًا.

فلما كشف عنه ونظر إليه، رأى شيئًا عظيمًا لا عهد له بمثله، فقال في نفسه: إن أنا أحرزت ما هاهنا بنقله وحدي لم أنقله إلا في أيام، وجعلت لنفسي عملاً طويلاً ولكن أستأجر رجالاً يحملونه. ففعل ذلك.

وجاء بالرجال فحمل كل واحد منهم ما أطاق، وانطلقوا فيما زعم إلى منزله.

فلم يزل في ذلك حتى فرغ واستنفذ الكنز كله.

ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ، فلم يجد شيئًا، ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه، ولم يكن له إلا العناء في استخراجه والتعب عليه.

تعليـق:

يضرب هذا المثل لمن فَرَّط في شئون نفسه وأعماله، واعتمد على غيره في تحصيلها، ممن لا تؤمن خيانتهم.

* * *

طالب العلم والصحيفة الصفراء

طلب رجلٌ علمَ الفصاحة، فأتى صديقًا له ومعه صحيفة صفراء، فسأله أن يكتب له فيها علم العربية.

فكتب له في الصحيفة ما أراد.

فانطلق الرجل إلى منزله، وجعل يقرؤها ولا يدري معناها. وظن أنه قد أحكم ما في الصحيفة!

وحدث أن تكلم في بعض المجالس وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة.

فقال له بعضهم: لحنتَ.

فقال: ألحن والصحيفة الصفراء في بيتي!

تعليـق:

يضرب هذا المثل لمن ادّعى الفضيلة والعلم وهو ليس من أهلها.. فهو جاهل مركب، يجهل ولا يدري أنه يجهل، ويناسب هذا المثل في زماننا من اجتهد في تحصيل أنواع الكتب الثمينة، ولكنه لم يفقه كثيرًا مما فيها.

* * *

الرجل المتواني والسارق

دخل سارق على رجل في منزله.

فاستيقظ الرجل، فقال في نفسه: لأسكتن حتى أنظر غاية ما يصنع، ولأتركنه حتى إذا فرغ مما يأخذ قمت إليه فنغصت عليه ذلك وكدرته.

فسكت وهو في فراشه.

وجعل السارق يطوف في البيت، ويجمع ما قدر عليه، حتى غلب على صاحب البيت النعاس، وحمله النوم فنام.

ووافق ذلك فراغ السارق، فعمد إلى جميع ما كان جمعه، فاحتلمه وانطلق به.

واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق، فلم ير في منزله شيئًا، فجعل يلوم نفسه ويعاتبها، ويعض كفيه أسفًا، وعرف أن فطنته وعلمه لم ينفعاه شيئًا إذ لم يستعملهما.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن فرّط وأضاع الفرصة حتى فاتته، فخسر شيئًا دنيويًا كان أم دينيًا.

قال ﷺ: «**استعن بالله ولا تعجز**»[١].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٨/٥٦).

بائع السمسم وصديقه

كان رجل يبيع السمسم، وكان له شريك، فكان سمسمهما في بيتٍ واحد، غير أن الذي لكل واحد منهما على حده. فأحب أحدهما أن يذهب بالذي لشريكه من السمسم.

ثم أحب أن يجعل له علامةً، حتى إذا دنا الليل عرفه بها، فعمد إلى ردائه فغطاه به، ثم انطلق إلى صديق له فأخبره بالذي هم به، وسأله أن يعينه عليه، فأبى صديقه ذلك إلا أن يجعل له نصف ما يأخذه منه، ففعل.

ثم إن شريكه دخل البيت، فرأى سمسمه مغطى برداء صاحبه، فظن أنه غطاه من التراب والدواب.

فقال في نفسه: لقد أحسن شريكي في تغطيته سمسمي وإشفاقه عليه، وسمسمه أحق أن يغطى بردائه، فحول الرداء على سمسم صاحبه.

فلما كان في الليل جاء التاجر والرجل معه، ودخلا البيت وهو مظلم، فجعل الرجل يتلمس ويجس حتى وقعت يده على الرداء المغطى على السمسم، وهو يُقَدر أنه كما غطاه، وأنه سمسم صاحبه، فأخذ نصفه وأعطى صديقه الذي عاونه نصفه.

فلما أصبح جاء هو وشريكه حتى دخلا البيت، فلما رأى الرجل أن الذي ذهب سمسمه، ورأى سمسم صاحبه على حاله دعا بالويل، وعرف أن الذي أخذه ذلك الرجل ليس براده، ويخشى أن تكون فيه فضيحته، فلم يقل شيئًا.

تعليـق:

يضرب هذا المثل لبيان عقوبة من أراد الضر بإخوانه، فعاقبه الله بضد ما يريد، لتزداد حسرته ويتوب من فعلته.

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١/٤٩).

الرجل الفقير والسارق

أصاب رجلاً حاجةٌ شديدة وفقر، فغدا يطلب من معارفه، وشكا إليهم، وسألهم ثوبًا يلبسه، وجهد فلم يصب شيئًا، ورجع إلى منزله وهو آيس.

فبينما هو نائم في فراشه، إذا بسارق قد دخل عليه في منزله، فلما رآه الرجل قال: ما في منزلي شيء يستطيع هذا السارق أن يسرقه، فليصنع ما شاء وليجهد نفسه.

فدار السارق في البيت، وطلب فلم يجد شيئًا يأخذه، فغاظه ذلك، وقال في نفسه: ما أرى ههنا شيئًا، وما أحب أن يذهب عنائي باطلاً. فانطلق إلى خابية فيها شيء من بر، فقال: ما أجد بدًا من أخذ هذا البر إذ لم أجد غيره، فبسط عباءته وصب ذلك البر فيها.

فلما بصر به الرجل قال: ليس عن هذا صبر، يذهب البر، ويجتمع عليّ أمران: الجوع والعري!

فصاح بالسارق، فهرب من البيت وترك عباءته، فأخذها صاحب المنزل ولبسها، وأعاد البر إلى مكانه.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن حصّل شيئًا دون تعب منه ولا جهد، فقد حاز صاحب المنزل عباءة السارق دون أن يجهد نفسه بعمل أو طلب رزق... ولكن هل يجوز لهذا الرجل أن يمتلك العباءة في شرع الإسلام؟

لا.. بل هي لصاحبها (السارق) تعود إليه.. ولكن بعد أن يأخذ عقابه على اقتحامه منزل الرجل.

المصدق المخدوع

زعموا أن جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه، فَعَلوا ظهر بيته ليلاً، فانتبه صاحب البيت لوطئهم وأحس بهم، فعرف أنه لم يعلُ ظهر بيته في تلك الساعة إلا مريب، فأيقظ امرأته وقال لها: رويدًا! إني لأحسب اللصوص قد علوا ظهر بيتنا، وأنا متناوم لك فأيقظيني بصوت رفيع يسمعه من فوق البيت من اللصوص، ثم قولي: ألا تخبرني عن أموالك الكثيرة هذه وكنوزك من أين جمعتها؟ فإذا أبيت عليك فألحي في السؤال.

ففعلت المرأة ذلك وسمع اللصوص كلامها.

فقال الرجل: أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع، فكلي واشربي ولا تسألي عما لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعه سامع فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين.

فقالت المرأة: لعمري ما بقربنا أحد يفهم كلامنا.

فقال الرجل: فإني مخبرك أني لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلا بالسرقة.

قالت: وكيف كان ذلك؟ وأنت في أعين الناس عدل مرضي لم يتهمك ولم يسترب بك أحد؟

قال: ذلك لعلمٍ أصبته في السرقة، كان ألطف وأرفق من أنْ يتهمني أو يرتاب فيّ أحد.

قالت: وكيف كان ذلك؟

قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعي أصحابي حتى أعلو ظهر

البيت الذي أريد أن أسرقه.

فأنتهي إلى الكوّة التي يدخل منها الضوء إلى البيت.

فأنادي بهذا القول (شولم شولم) سبع مرات. ثم أعتنق الضوء فأهبط فيه إلى البيت ولا يحس بوقوعي أحد، ثم أقوم في أسفل الضوء فأعيد القول سبع مرات فلا يبقى في البيت مال ولا متاع إلا ظهر لي، وأمكنني أن أتناوله، وقويت على حمله، ثم أعتنق الضوء وأصعد إلى أصحابي فأحَمِّلهم ما معي، ثم نهرب دون أن يشعر بنا أحد.

فلما سمع اللصوص ذلك فرحوا وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بأمرٍ هو خير لنا من المال.

وأطالوا المكث حتى ظنوا أن الرجل قد نام، ودنا رئيسهم إلى مدخل الضوء فقال: (شولم شولم) سبع مرات، ثم اعتنق الضوء لينزل إلى البيت فوقع منكسًا.

فوثب إليه صاحب البيت بعصًا فأوجعه ضربًا، وقال له: من أنت؟

فقال اللص: أنا المصدِّق المخدوع.. وهذه ثمرة تصديقي!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أراد الضرر بعباد الله الغافلين، فأوقعه الله في شر عمله، وفضحه أمام الناس، ولم يمكّنه مما كان يؤمل ويرجو.

* * *

القــرد والنجــار

زعموا أن قردًا رأى نجارًا يشق خشبة على وتدين راكبًا عليها كالأسوار على الفرس، وكلما شق منها ذراعًا أدخل فيه وتدًا.

ثم إن النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قبل ذلك الوتد، وتدلت خصيتاه في الشق!

فلما نزع الوتد انضمت الخشبة على خصيتيه فخرّ مغشيًا عليه.

وجاء النجار فزاده ضربًا على وجعه، فانطلق هاربًا يتألم.

تعليـق:

يضرب هذا المثل لمن عمل شيئًا لا يحسنه، وتدخل فيما لا يعنيه، فجرّ على نفسه مصيبةً أو أذية لجهله وسوء تدبيره.

قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1].

* * *

(١) حديث صحيح رواه أحمد، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٨٣٩).

الثعلب والطبل

زعموا أن ثعلبًا جائعًا مر بأجمة فيها طبل معلق، فهبت الريح فجعلت قضبان الشجرة تقرع الطبل فيصوت صوتًا شديدًا.

فسمع الثعلب ذلك الصوت، فتوجه إليه حتى أتاه، فلما رآه ضخمًا ظن أن ذلك لكثرة شحمه ولحمه.

فعالجه حتى شقه.

فلما رآه أجوف قال: ما أدري، لعل أضعف الأشياء أضخمها جثة وأشدها صوتًا.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن يغر الناس بمنظره وهيئته، فإذا داخله بخلاف ظاهره، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

وكما قال الشاعر:

ترى الرجل الضئيل فتزدريه ... وفي أثوابه أسد مزير

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجلُ الطرير

* * *

الغـراب والأسْـوَد[1]

(١) أي الثعبان.

زعموا أنه كان وكرٌ لغراب في شجرة في جبل، وكان بقربه جحر أسود، وكان الغراب كلما فرّخ عمد الأسود إلى فراخه فأكلها.

فاشتد ذلك عليه وبلغ منه مبلغًا شديدًا.

فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى وقال: أردت أن أشاورك في شيء هممت به، إن أنت وافقتني عليه.

قال: وما هو؟

قال: أن آتي الأسود وهو نائم فأنقر عينه لعلي أفقأهما.

فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممت بها! فالتمس أمرًا تصيب منه حاجتك، ولا يصل فيه مكروه إليك.

والرأي أن تنطلق فتلتمس حليًا، فإذا ظفرت به فاخطفه ثم طر به - وأصحابه ينظرون إليك - حتى تنتهي به إلى جحر الأسود فترمي به عليه.

فحلق الغراب طائرًا، فإذا بجاريه قد ألقت ثيابها وحليها وهي تغتسل. فأهوى فأخذ عقدًا نفيسًا وحلّق به طائرًا حيث يراه الناس، حتى رماه قريبًا من جحر الأسود.

فأتى الناس وأخذوا العقد ورأوا الأسود نائمًا على باب جحره فقتلوه.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن خلّص نفسه من أذى عدوه، وعاقبه بمثل ما كان يعاقب به.. كما قال ﷺ: «**الحرب خدعة**»[1].

---

(١) متفق عليه.

السرطان والعلجوم(١)

(١) ذكر البط.

كان علجوم معششًا في أجمة مخصبة كثيرة السمك. فعاش هنالك ما عاش، ثم هرم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجهد، فالتمس الحيل وقعد مفكرًا حزينًا.

فرآه سرطان من بعيد، فلما رأى حاله عرف مابه.

فأتاه فقال له: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟

فقال العلجوم: وكيف لا أكتئب ولا أحزن وإنما كان معاشي من السمك ههنا وهن كثير، وإني رأيت اليوم صيادين أتيا مكاننا هذا فقال أحدهما لصاحبه: إن ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده؟

فقال صاحبه: إني عرفت أمامنا مكانًا فيه سمك أكثر منه، فأنا أحب أن نبدأ به ثم نرجع إلى ما ههنا فنفنيه.

وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يتركا في هذه الأجمة سمكة إلا صاداها، فإذا كان ذلك فإن فيه هلاكي وموتي، فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

فأقبلن إلى العلجوم وقلن له: أتيناك لتشير علينا فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يشركه فيه، وأنت ذو رأي ولك في بقائنا صلاح! فأشر علينا برأيك.

قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين وقتالهما فليسا عندنا ولا نطيقهما، ولا أعلم حيلة، إلا أني قد عرفت مكانًا كثير الماء والخضرة فإن شئتن فانتقلن إليه.

فقلن له: ومن يمن علينا بذلك؟

فقال: أنا.

فجعل يحمل منهن اثنتين في كل يوم. ينطلق بهما إلى بعض التلال فيأكلهما.

ثم إن السرطان قال له: إني قد أشفقت مما قد حذرتنا فلو ذهبت بي.

فاحتمله حتى دنا من المكان الذي كان يأكلهن فيه. فلما بصر بعظامهن مجموعة تلوح عرف أنه هو صاحبهن، وأنه يريد به مثلهن. فقال: إذا لقي المرء عدوه في المواطن التي يعلم أنه هالك فيها فهو حقيق أن يقاتل كرهًا وحفاظًا على نفسه، فأهوى بكلاليبه على عنق العلجوم فعصره فوقع إلى الأرض ميتًا ورجع السرطان إلى السمك فأخبرهن.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن اتصف بصفة الحذر من الأعداء وعدم الثقة بهم، ولو أظهروا له الود والقصد الحسن، واستطاع أن يباغتهم بسرعة بديهة وحسن تصرف.

وهكذا القصة التالية (الأسد والأرنب).

* * *

الأســد والأرنــب

زعموا أن أسدًا كان في أرض مخصبة كثيرة الوحش والماء والمرعى. وكان لا ينفعهن ما هن فيه من خوفهن من الأسد.

فائتمرن فيما بينهن وأتينه فقلن له: إنك لا تصيب منا الدابة إلا بعد تعب ونصب، وقد اجتمعنا على أمر لنا ولك فيه راحة. إن أنت أمنتنا فلم تخفنا.

فقال: أنا فاعل.

فقلن: نرسل إليك لغدائك كل يوم منا دابة.

فرضي بذلك وصالحهن عليه.

ووفّى لهن بما أعطاهن من نفسه ووفين له به.

ثم إن أرنبًا أصابتها القرعة.. فقالت لهن: أي شيء يضركن إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن وأريحكن من الأسد؟

فقلن لها: وما ذلك؟

قالت: تأمرن من يذهب معي ألا يتبعني لعلي أبطيء على الأسد حتى يتأخر غداؤه فيغضب لذلك.

ففعلن بها ما ذكرته.

وانطلقت متئدة[١]، حتى جاءت الساعة التي كان يتغدى فيها.

فجاع الأسد وغضب وقام عن مربضه يمشي وينظر فلما رآها قال:

---

(١) أي: تمشي ببطء.

من أين جئت؟ وأين الوحوش؟

فقالت: من عندهن جئت: وهن قريب، وقد بعثن معي بأرنب، فلما كنت قريبًا منك عرض لي أسد فانتزعها مني. فقلت: إنها طعام الملك فلا تأخذه، فشتمك وقال: أنا أحق بهذه الأرض وما فيها منه. فأتيتك لأخبرك.

فقال: انطلقي معي فأرينيه.

فانطلقت به إلى بئر صافي الماء، فقالت: هذا مكانه وهو فيه، وأنا أخاف منه، فاحملني على صدرك.

فحملها في صدره ونظر في البئر فإذا هو بظلها وظله فوضع الأرنب من صدره ووثب لقتال الأسد في البئر، وطلبه فغرق.

وانفلتت منه الأرنب، ورجعت إلى سائر الوحوش، فأعلمتهن بخبره.

فشكرت الوحوش لها حسن صنيعها.

* * *

السمكات الثلاث

زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات: كَيِّسة[١] وأكيس منها وعاجزة. وكان ذلك المكان في منخفض من الأرض لا يكاد يقربه من الناس أحد، فلما كان ذات يوم مر صيادان على ذلك الغدير مجتازين فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهن فيه.

فلما رأتهما الحازمة ارتابت بهما وتخوفت منهما فقفزت من مدخل الماء إلى النهر.

وأما الكَيِّسة فتلبثت حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهما قد سدا المخرج وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص وقلما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأي.

ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبه، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيدة من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما.

وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صاداها.

تعليــق:

يضرب هذاالمثل لثلاثة أصناف من البشر: أحدهما: مجتهد حريص على نفع نفسه والبعد عن مواطن الهلكة، لا يُعَرض نفسه للفتن، بل يبادر الأحداث قبل أن تبهته فينجو ويفلح.

---

(١) الكيِّسة أي الذكية الفطنة.

والآخر: يتأنى ويتأنى حتى إذا وقع الامتحان والابتلاء جدّ في تخليص نفسه في اللحظة الأخيرة، فنجا بعد أن كاد يهلك.

وأما الثالث: فعاجز غير فطن، يضيع الأوقات في اللهو واللعب، حتى يدهمه الامتحان والابتلاء، فيقع متعثرًا مع العاجزين.

* * *

القملة والبرغوث

زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأشراف، فكانت تصيب من دمه وهو نائم، وتدب دبيبًا رفيقًا فلا يشعر بها.

ثم إن برغوثًا زارها فقالت له: بت هنا الليلة في دمٍ طيب وفراش لين!

ففعـــل.

فلما آوى الرجل إلى فراشه لذعه البرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمر لفراشه أن يفتش وينظر ما فيه.

فوثب البرغوث فنجا.

وأخذوا القملة فقتلوها!!

تعليـق:

يضرب هذا المثل لمن يكرم أهل اللؤم والظلم ممن لا يقدرون المرء قدره، ولا يعاملونه بمثل ما عاملهم به، بل ينقلب صنيعه الحسن لهم إلى أسوأ ما تمناه منهم.

قال الشاعر:

إذا أنـــت أكـــرمـــت الكـــريـــم ملكتـــه
وإن أنـــت أكـــرمـــت اللئيـــم تمـــردا

* * *

الذئب والغراب وابن آوى[1] والجمل

(١) ابن آوى حيوان يشبه الذئب وهو أصغر حجمًا منه.

زعموا أن أسدًا كان في أجمة مجاورة طريقًا من طرق الناس له أصحاب ثلاثة: ذئب وابن آوى وغراب. وأن أناسًا من التجار مروا في ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد.

فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ فأخبره بشأنه.

فقال له: ما تريد؟

قال: أريد صحبة الملك.

قال: فإن أردت صحبتي فاصحبني في الأمن والخصب والسعة.

فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يوم توجه الأسد في طلب الصيد، فلقي فيلاً فقاتله قتالاً شديدًا، ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بأنيابه، فوقع مثخنًا لا يستطيع صيدًا.

فلبث الذئب وابن آوى والغراب أيامًا لا يصبن شيئًا مما كن يعشن به من فضل الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد.

فعرف الأسد ذلك منهن فقال: جهدتن واحتجتن أن تأكلن.

فقلن: ليس همنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه.

قال الأسد: ما أشك في مودتكم وصحبتكم ولكن إن استطعتم فانتشروا فعسى أن تصيبوا صيدًا فتأتوني به، ولعلي أكسبكم ونفسي خيرًا.

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا ناحية وائتمروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الآكل العشب، الذي ليس شأنه شأننا، ولا رأيه رأينا؟ ألا نزين للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمَّن الجمل، وجعل له ذمة.

قال الغراب: أقيما مكانكما ودعاني والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد؟ فلما رآه قال له الأسد: هل حصّلتم شيئًا؟

قال له الغراب: إنما يجد من به ابتغاء، ويبصر من به نظر؛ أما نحن فقد ذهب منا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع؛ ولكن قد نظرنا في أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون.

قال الأسد: وما ذلك الأمر؟

قال الغراب: هذا الجمل الآكل العشب، المتمرغ بيننا في غير منفعة.

فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأ مقالتك، وأعجز رأيك، وأبعدك من الوفاء والرحمة، وما كنت حقيقًا أن تستقبلني بهذه المقالة، ألم تعلم أني أمنت الجمل، وجعلت له ذمة؟ ألم يبلغك أنه لم يتصدق المتصدق بصدقة ـ وإن عظمت ـ هي أعظم من أن يجير نفسًا خائفة، وأن يحقن دمًا مهدورًا؟ وقد أجرت الجمل، ولست غادرًا

به.

قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك، ولكن النفس الواحدة يفتدي بها أهل البيت، وأهل البيت تفتدي بهم القبيلة، والقبيلة يفتدي بها المصر، والمصر فدى الملك إذا نزلت به الحاجة، وإني جاعل للملك من ذمته مخرجًا، فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدرًا ولا يأمر به؛ ولكنا محتالون حيلة فيها وفاء للملك بذمته وظفر منا بحاجتنا.

فسكت الأسد.

فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلمت الأسد حتى أقر بكذا وكذا. فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسد أن يلي قتله أو يأمر به؟

قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك.

قال الغراب: الرأي أن نجتمع والجمل، ونذكر حال الأسد، وما أصابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا محسنًا، ولنا مكرمًا. فإن لم ير منا اليوم ـ وقد نزل به ما نزل ـ اهتمامًا بأمره وحرصًا على صلاحه، أنزل ذلك منا على لؤم الأخلاق وكفر الإحسان. ولكن هلموا فتقدموا إلى الأسد نذكر له حسن بلائه عندنا، وما كنا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندخر ذلك عنه، فإن لم نقدر على ذلك فأنفسنا له مبذولة. ثم ليعرض عليه كل واحد منا نفسه وليقل: كلني أيها الملك، ولا تمت جوعًا.

فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون وردوا عليه مقالته بشيء يكون

له فيه عذر، فيسكت ويسكتون، ونسلم كلناونكون قد قضينا ذمام الأسد، ففعلوا وواطأهم الجمل على ذلك.

ثم تقدموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجت أيها الملك إلى ما يقيمك، ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك؛ فإنا بك كنا نعيش وبك نرجو عيش من بعدنا من أعقابنا، وإن أنت هلكت فليس لأحد منا بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خير؛ فأنا أحب أن تأكلني، فما أطيب نفسي لك بذلك.

فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أن اسكت فما أنت؟ وما في أكلك من الشبع للملك؟

قال ابن آوى: أنا مشبع الملك.

قال الذئب والجمل والغراب: أنت منتن البطن والريح، خبيث اللحم؛ فنخاف إن أكلك الملك، أن يقتله خبث لحمك.

قال الذئب: لكني لست كذلك، فليأكلني الملك.

قال الغراب وابن آوى والجمل: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذه منه الخناق.

وظن الجمل أنه إذا قال مثل ذلك عن نفسه، يلتمسون له مخرجًا كما صنعوا بأنفسهم، ويسلم ويرضي الأسد.

قال الجمل: لكن أيها الملك، لحمي طيب ومريء، وفيه شبع للملك.

قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقت وتكرمت وقلت ما نعرف!

فوثبوا عليه فمزقوه.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن يغفل عن مكايد عدوه وينخدع له بسهولة ويسر، وهذا ليس من خلق المؤمنين الذين أُمروا بالحذر.. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٧١].

* * *

السلحفاة والبطتين

زعموا أن عينًا كان فيها بطتان وسلحفاة، وكان قد ألف بعضهم بعضًا وصادقه، ثم إن تلك العين نقص ماؤها في بعض الأزمان نقصانًا فاحشًا، فلما رأت البطتان ذلك قالتا: إنه لينبغي لنا ترك ما نحن فيه، والتحول إلى غيره.

فودعتا السلحفاة وقالتا: عليك السلام فإنا ذاهبتان.

قالت السلحفاة: إنما يشتد نقصان الماء على مثلي لأني لا أعيش إلا به فاحتالا لي واذهبا بي معكما.

فقالتا: لا نستطيع أن نفعل ذلك بك حتى تشترطي لنا أننا إذا حملناك فرآك أحد فذكرك ألا تجيبيه.

فقالت: نعم ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟

فقالتا: تعضين على وسط عود وتأخذ كل واحدة منا بطرفه.

فرضيت بذلك وطارا بها.

فرآها الناس فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى العجب، سلحفاة بين بطتين تطيران بها في الهواء.

فلما سمعت ذلك قالت: رغم أنفكم.. فلما فتحت فاها بالمنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

تعليق:

يضرب هذا المثل للمتعجل أو المغفل الذي لا يعرف ما يضره مما ينفعه، ولو حذره الناس ونصحوه.

الذكي والمغفل

زعموا أن رجلين أحدهما ذكي والآخر مغفل اشتركا. فبينما هما يتمشيان إذ وجدا صرة فيها ألف دينار، فأخذاها.

وبدا لهما أن يرجعا إلى مدينتهما.

فلما دنوا منها قال المغفل للذكي: خذ نصفها وأعطني نصفها.

فقال الذكي ـ وكان قد أضمر الذهاب بها كلها ـ: لا فإن المفاوضة أدوم للمصافاة، ولكن يقبض كل واحد منا شيئًا ينفقه، وندفن بقيتها في مكان حريز فإذا احتجنا إليها أخرجناها.

فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة.

ثم رجع إليها الذكي فذهب بها.

فلقيه المغفل فقال: اخرج بنا إلى وديعتنا فلنقبضها.

فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها.

فجعل الذكي ينتف شعره ويدق صدره، ويقول: لا يثقن أحد بأحد، رجعتَ إليها فأخذتها.

وجعل المغفل يحلف أنه ما فعل.

ثم انطلق به إلى القاضي فقص عليه الأمر، فقال القاضي له: هل من يشهد؟

قال: نعم! الشجرة تشهد لي بما أقول!

فأنكر ذلك عليه القاضي أشد الإنكار، وأمر به فكفل وقال: وافوني به غدًا باكرًا.

فانصرف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إني لم أقل الذي ذكرت إلا لأمر قد فكرت فيه، فإن أنت طاوعتني أحرزنا ما أخذنا وأضفنا إليه مثله من المغفل.

فقال: وما ذاك؟ فقص عليه الخبر ثم قال: فأنا أحب أن تذهب الليلة فتدخل جوف الشجرة فإذا جاء القاضي فسألها قلت: (المغفل أخذ الدنانير).

فقال: يا بني إنه رُبّ امريء قد أوقعه تمحله في ورطة.

فلم يزل به حتى أطاعه واتبع رأيه، فلما انتهى القاضي إلى الشجرة وسألها أجابه من جوفها بأن المغفل أخذ الدنانير.

فاشتد عجب القاضي من ذلك وطاف بها فلم ير شيئًا.. فأمر بحَطب فجُمع وألقي عليها وجعل فيه نارًا، فلما دخل عليه الدخان ووصل إليه الوهج تصبّر ساعة ثم صاح!

فأُخْرج بعدما أشرف على الهلاك.

ثم عاقبه القاضي وابنه، فمات الشيخ وانصرف به ابنه يحمله ميتًا، ورجع المغفل وقد أخذ الدنانير.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أراد الضرر بالآخرين ومكر بهم، فانقلب مكره عليه وأصابه سوء عمله.. قال تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [سورة يونس، الآية: ٢٧].

الجرذان وتاجر الحديد

زعموا أنه كان بأرض (مردات) تاجر معروف فأراد الذهاب إلى حاجة له، وكان له مائة مَنّ[١] من الحديد. فاستودعها رجلاً من معارفه وانطلق إلى حاجته.

فلما رجع طلبها منه؛ وكان صاحبه قد باعها وأكل ثمنها. فقال له: كنت تركتها في ناحية البيت فأكلها الجرذان! ولقد يبلغنا أنه ليس شيء بأقطع للحديد من أنيابهن! وما أهون المصيبة في ذلك إذا سلمك الله.

ففرح بماسمع منه، وقال: تفضل اليوم عندي.

فوعده بذلك.

وخرج فأخذ ابنًا له صغيرًا حتى خبأه في بيته ثم رجع إليه، فلم يزالا في شأنهما حتى ذكر التاجرُ ابنه وافتقده فقال له: هل رأيت ابني؟

فقال صاحبُ الحديد: لقد رأيت حين دنوت منكم صقرًا اختطف غلامًا فلعله هو!

فصاح التاجر وقال: يا من حضر! هل سمعتم بمثل هذا قط؟

فقال: إن أرضًا يأكل جرذانها مائة منّ حديدًا ليس بمستكبر لها أن تختطف صقورها الفيلة!

فقال: أنا أكلت حديدك وسُمًّا أدخلت جوفي.. فادفع إليّ ابني وأردّ لك ثمن حديدك.. ففعل ذلك.

---

(١) المَنّ: معيار للوزن يساوي رطلين.

تعليـق:

يضرب هذا المثل أيضًا فيمن عرف مكر الخونة وخديعتهم.. فخلص ماله ونفسه منهم بمثل صنيعهم معه. وفيه عقوبة الله لمن أخلف وعده وخان العهد. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

* * *

الطبيب الجاهل والمتكلف

زعموا أنه كان في مدينة من مدائن السند طبيب عالم رفيق، فمات، فنظروا في كتبه فكانوا ينتفعون بها ويتعلمون منها.

فأتاهم رجل زعم أنه طبيب، وأن له رفقًا ـ ولم يكن كذلك ـ.

وكانت لملكهم ابنة كريمة عليه، وكانت حاملاً فأصابها بَطَن[1] فجعلت تحس الأعراض.

فبعث الملك في طلب الأطباء، فأتت رسله رجلاً منهم كان له علم على بعد فرسخ فوجدوه قد عمي، فوصفوا له وجع ابنة الملك، فأمرهم أن يسقوها دواءً يقال له (زامهران) فرجعوا إلى الملك فأخبروه بذلك.

فأمر أن يُطلب لها الطبيب ليهيء ذلك الدواء.

فأتاه ذلك الرجل الجاهل فأخبره أنه عالم عارف بالأدوية وأخلاطها.

فدعا الملك بالقوارير التي فيها أدوية الطبيب فوضعت بين يديه، فأخذ من أحدها قارورة فيها سم فجعل منها ومن غيرها دواءً مركبًا.

فلما رأى الملك سرعة فراغه من ذلك ظن أنه عالم، فأمر له بحلي وكسوة حسنة، وسقى الجارية منه، فلم تلبث أن تقطعت أمعاؤها فماتت!! فأمر أبوها بسقي الطبيب من الذي صنع لها من الأدوية، فهلك.

---

(١) أي: وجع في بطنها.

تعليــق:

يضرب هذا المثل لمن تكلف ما لا يحسن، وخاض في علم لم يتقن أصوله فأتى بالعجائب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٦]. فالتواضع وعدم التعالم هما علامة أهل الإيمان الذين اعتادوا أن يقولوا إذا سئلوا عن شيء لا يعلمونه: الله أعلم!

* * *

الحمامة المطوّقة

زعموا أنه كان بأرض (دستاد) عند مدينة يقال لها (ماروات) مكان للصيد يتصيد فيه الصيادون. وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون ملتفة الورق. وكان فيها وكر غراب يقال له (حائر).

فبينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة، إذ بصر برجلٍ من الصيادين قبيح المنظر سيء الحال وعلى عنقه شبكة، وفي يده شَرَك[١] وعصا، وهو مقبل نحو الشجرة، فذعر الغراب منه وقال: لقد ساق هذا الصياد إلى ههنا أمرٌ، فما أدري ما هو! ألموتي أم لموت غيري؟ ولكني ثابت على كل حال، وناظر ما يصنع.

فنصب الصياد شبكته ونثر فيها حبه وكمن قريبًا؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوّقة ـ وكانت سيدة الحمام ـ ومعها حمام كثير.

فرأت الحب ولم تر الشبكة، فانقضت وانقض الحمام معها، فوقعن في الشبكة جميعًا. وجعلت كل حمامة منهن تضرب على ناحيتها وتعالج الخلاص لنفسها.

فقالت المطوقة: لا تَخَاذلن في المعالجة، ولا تكن نفس كل واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن تعاونَّ فلعلنا نقلع الشبكة فينجي بعضنا بعضًا.

ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاونَّ عليها، وطرن بها في علو السماء.

---

(١) أي: مصْيَدة.

ورأى الصياد صنيعن فاتبعهنّ يطلبهنّ، ولم يقطع رجاءه منهن، وظن أنهن لا يطرن إلا قريبًا حتى يقعن.

وقال الغراب: لأتبعن حتى أنظر إلى مايصير إليه أمرهن وأمره.

والتفتت المطوقة فلما رأت الصياد يقفوهن[1] قالت للحمام: ها هو ذا جاء يطلبكن؛ فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا، وإن نحن أخذنا في الشجر والعمران لم نلبث أن يخفى عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا حتى ييأس منا فينصرف؛ ومع ذلك إن قريبًا من الطريق جحر جرذ، وهو صديق لي، فلو انتهينا إليه لقطع عنا هذه الشبكة وخلصنا منها.

ففعل الحمام ما أمرتهن به المطوقة، وخفين على الصياد، فأيس منهن وانصرف.

وثبت الغراب على حاله لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما هن فيه فيتعلمها وتكون عدة لنفسه إن وقع في مثلها.

فلما انتهت المطوقة إلى مكان الجرذ أمرت الحمام بالنزول فوقعن، ووجدت الجرذ قد أعد مائة جحر للمخاوف، فنادته المطوقة باسمه ـ وكان اسمه زيرك ـ فأجابها من الجحر وقال: من أنت؟

فقالت له: الحمامة المطوقة.

فخرج إليها مسرعًا، فلما رآها في الشبكة قال لها: يا أختي، ما

---

(١) أي: يتبعهن.

أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس[١]؟

قالت له: أما تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو محتوم على من يصيبه، بأيامه وعلله ومدته وكنه ما يبتلى به من قلته وكثرته؟ فالمقادير هي التي أوقعتني في هذه الورطة، ودلتني على الحب، وأخفت عليّ الشبكة حتى دخلت فيها وصويحباتي.

فأخذ الجرذ في تقريض العُقَد التي كانت فيها المطوقة. فقالت له: ابدأ بتقريض عُقَد سائر الحمام قبلي وانصرف إليّ.

فأعادت ذلك عليه مرارًا ـ كل ذلك لا يلتفت إلى قولها ـ فلما ألحّت عليه قال لها: قد كررتِ عليّ هذه المقالة كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا ترين لها عليك حقًا.

فقالت له المطوقة: لا تلمني على ما سألتك؛ فإني قد كلفت لجماعتهن بالرياسة، فحق ذلك عليّ عظيم. وقد أدين إلي حقي في الطاعة والنصيحة، بمعونتهن وطاعتهن، وبذلك نجانا الله من الصياد.

تعليق:

يضرب هذا المثل في أهمية التعاون وفضله، لأن المرء المسلم يقوى بإخوانه، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].. وأما التعاون على الشر فليس ممدوحًا بل مذمومًا، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

---

(١) أي: الأذكياء.

الجرذ والرجل والضيف

قال الجرذ: كان أول منزلي في مدينة يقال لها (ماروت) في بيت رجل لم يكن له عيال. وكان يؤتى كل ليلة بسلة من طعام فيتعشى منه ثم يضع فيها بقيته ويعلقها، فأَرْصُده حتى يخرج، ثم آتي إليها فلا أدع فيها شيئًا إلا أكلته ورميت به إلى الجرذان.

فجهد الرجل مرارًا على أن يجعلها في مكان لا أناله، فلم يقدر على ذلك.

ثم إن الرجل نزل به ضيف ذات ليلة فأكلا جميعًا، حتى إذا كانا عند الحديث قال الرجل للضيف: من أي أرض أنت؟ وأين وجهك الآن؟ وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق ورأى العجائب، فأنشأ يحدثه عما وطىء من البلدان ورأى من الأمور.

فجعل الرجل يصفق بيديه أحيانًا لينفرني عن السلة.

فغضب الضيف من ذلك وقال: أنا أحدثك وتهزأ بي وتصفق بيديك فما حملك على أن تسألني وأنت تفعل هذا؟ فاعتذر إليه وقال: إني لم أرْتَب بحديثك، ولكن كنت أفعل الذي رأيت لأنفر جرذًا في البيت لست أضع فيه طعامًا إلا أكله، وقد شق علي ذلك.

فقال له الضيف: أجرذ واحد أم جرذان كثيرة؟

فقال الرجل: جرذان البيت كثيرة وفيها واحد هو الذي قد آذاني وبرّح بي، ولا أستطيع له حيلة.

فقال الضيف: ما هذا إلا لشيء، فالتمس لي فأسًا لعلي أحفر جحره وأطلع على بعض شأنه.

فأتاه الرجل بفأس. وكان في جحري ألف دينار لم أدر من كان وضعها فيه، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعز بمكانها وأتقلب عليها.

وإن الضيف احتفر الجحر حتى انتهى إليها فاستخرجها وقال: ما كان يقوى هذا الجرذ على الوثوب حيث كان إلا بمكان هذه الدنانير، فإن المال جُعِل زيادة في القوة والرأي. وسترى أنه بعد اليوم لا يقوى ولا يستطيع ماكان يصنع، ولا يكون له فضل على سائر الجرذان.

فعرفت أنه قد صدق، وأحسست في نفسي ضعفًا ونقصانًا وانكسارًا حين أُخْرجت الدنانير من جحري، وانتقلت إلى جحر آخر.

فلما كان من الغد اجتمع الجرذان اللاتي كن يطفن بي، فقلن: قد أصابنا جوع، وفقدنا ما كنت عودتنا فانظر في أمرنا.

فانطلقتُ إلى المكان الذي كنت أثب منه إلى السلة فأردت الوثوب مرارًا، كل ذلك لا أقدر عليه. فاستبان لي أن حالي قد تغيرت، وزهد فيَّ الجرذان، وسمعت بعضهم يقول لبعض: قد هلك هذا آخر الدهر، فانصرِفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده، فإنا لا نراه يقوى على ما كان يفعل، بل نحسبه سيحتاج إلى من يعوله. فتركنني ولحقن بأعدائي ومن كان يحسدني، فأخذن في انتقاصي عندهم، وجعلن لا يقربنني ولا يلتفتن إليّ.

فقلت في نفسي: ما أرى التبع والإخوان والأهل إلا مع المال، ولا تظهر المروءة والرأي والمودة إلا به، فإني وجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرًا، قعد به عند العدم، كالماء الذي يبقى في الأودية

عن مطر الصيف، فلا هو إلى بحر ولا إلى نهر، فيبقى في مكانه لأنه لا مادة له.

وقد كنت رأيت الضيف حين أخرج الدنانير من الجحر قاسمها صاحب البيت، ثم وضع نصيبه منها في خريطة[١] عند رأسه. فطمعت أن أصيب منها شيئًا أرُدّ به بعض قوتي ويراجعني به أصدقائي، فانطلقت وهو نائم حتى قربت منه فاستيقظ لحركتي، وإلى جانبه قضيب، فضربني به على رأسي ضربة، فأوجعني فسعيت إلى جحري حتى دخلته.

فلما سكن عني ما كان بي من الوجع نازعني الحرص والشره، وغلباني على عقلي فدببت بمثل طمعي الأول، حتى دنوت منه وهو يرصدني. فعاد لي بضربة أخرى على رأسي سالت منها الدماء، وانقلبت ظهرًا لبطن، وانجررت حتى دخلت جحري مغشيًا عليّ لا أعقل ولا أدري. وأصابني من الوجع والفزع ما بَغّض إليَّ المال حتى إني لأسمع بذكره فيداخلني منه رعب وذعر.

ثم ذكرت فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى صاحبها الحرص والشره فلا يزال صاحبها يتقلب في تعب منها، ورأيت بين السخاء والشح تفاوتًا بعيدًا، ووجدت ركوب الأهوال الشديدة وتجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون على المرء من بسط يده بالمسألة، ووجدت الرضا والقنوع هما جميع الغنى، وسمعت العلماء

(١) وعاء من جلد.

يقولون: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حَسَب كَحُسن الخُلق، ولا غنى كالقناعة.

تعليق:

يضرب هذا المثل لحال بعض الناس في ميلهم إلى المال، وتقديرهم صاحبه والرفع من شأنه، وأما من فقده فلا يأبهون له ولا يميلون إلى جانبه. قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [سورة الفجر، الآية: ٢٠].

فالمال قوة وعزة إذا وقع في يد رجل مسلم ينفقه في طاعة الله ونصر دينه، وينقلب نقمة إذا أنفق في الشهوات والملاهي.

* * *

البــوم والغربــان

زعموا أن أرضًا تسمى سيرات، كان حولها جبل عظيم محيط بها، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يقال لها يبمرود، وكان فيها وكر ألف غراب، ولهن ملك منهن؛ وكان في ذلك الجبل وكر ألفٍ من البوم.

فخرج ملك البوم ذات ليلة، لعداوة بين البوم والغربان، فوقعت البوم على الغربان فأكثرن فيهن القتل والجراح، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح.

فلما كان الغد، ورأى ما لقي جنده، اهتم وحزن وقال: يا معشر الغربان! قد ترون ما لقينا من البوم، وما أصابنا منهن، وأشد مما أصابكن جرأتهن عليكن، ومعرفتهن مكانكن، وأنا متخوف من كرتهن بمثلها أو أشد منها عليكن.

وكان في الغربان خمسة ذوو رفق وعلم، ونظرٍ في الأمور، ومعرفةٍ بحسن الرأي والحيل، وكان الملك يشاورهم وينتهي إلى رأيهم.

فقال الملك للأول من الخمسة: قد كان ما رأيت، ولسنا نأمن رجعتهم، فما الحيلة.

فقال: الحيلة في الذي كانت العلماء تقول؛ فإنهم كانوا يقولون: ليس للعدو الحنق الذي لا يطاق إلا الهرب منه والتباعد عنه.

ثم سأل الملك الثاني، فقال: ما رأيك أنت؟

قال: أما ما أشار به هذا عليك فلا أراه حزمًا: ولا ينبغي لنا أن نفر من بلادنا ونذل لعدونا عند أول نكبة؛ ولكن نجمع أمرنا، ونستعد

لعدونا، ونذكي العيون ما بيننا وبينهم، ونحترس من الغرة والعودة؛ فإذا أقبل علينا عدونا لقيناه مستعدين لقتاله، فقاتلناه مزاحفة تلقي أطرافنا أطرافه، ونتحرز منه تحرزًا حصينًا، وندافع الأيام حتى نصيب منه غرة ولعلنا نظفر به.

ثم قال الملك للثالث: ما ترى فيما قال صاحباك؟ قال: لم يقولا شيئًا ولعمري ما مدافعة الأيام والليالي بمستقر لنا فيما بيننا وبين البوم، وما الرأي إلا أن نذكي العيون والطلائع بيننا وبين العدو، وننظر هل يقبلن صلحًا أو فدية أو خراجًا نؤديه إليهن، وندفع عن أنفسنا خوفهن، ونأمن في أوطاننا وأوكارنا؛ فإن من الرأي للملوك، إذا اشتدت شوكة عدوهم وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكة والفساد، أن يجعلوا الأموال جنة للرعية والبلاد.

فقال الملك للرابع: ما رأيك أنت فيما قال أصحابك، والصلح الذي ذكر هذا؟

قال: لا أرى ذلك. بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدة المعيشة، أحب إلينا من وضع أحسابنا، والخضوع لعدونا الذي نحن خير منه وأشرف؛ مع أني قد عرفت أنا لو عرضنا ذلك عليهن لم يقبلن إلا بالاشتطاط. وقد يقال: قارب عدوك بعض المقاربة تنل منه حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك بها، ويضعف ويذل لها جندك. ومثل ذلك مثل الخشبة القائمة في الشمس، فإن أملتها قليلاً زاد ظلها وإن جاوزت الحد في إمالتها ذهب الظل. وليس عدونا براضٍ منا بالدون في المقاربة؛ فالرأي لنا المحاربة والصبر.

قال الملك للخامس: ما رأيك أنت؟ آلصلح أم القتال أم الجلاء؟

قال: أما القتال فلا سبيل إلى قتال من لا نقاربه في القوة والبطش؛ فإنه من أقدم على عدوه استضعافًا له اغتر، ومن اغتر أمكن من نفسه ولم يسلم. وأنا للبوم شديد الهيبة ولو أنها أضربت عن قتالنا. وقد كنا نهابها قبل إيقاعها بنا؛ فإن العاقل لا يأمن عدوه على كل حال: إن كان بعيدًا لم يأمن من معاودته، وإن كان متكشفًا لم يأمن استطراده، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته.

قال الملك: فما ترى إذا كرهت ذلك.

قال: نأتمر ونتشاور؛ فإن الملك المشاور المؤامر، يصيب في مؤامرته ذوي العقول من نصحائه، من الظفر، ما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد.

فنهض الملك فخلا معه واستشاره؛ فكان مما سأله عنه أن قال: هل تعلم ما كان سبب عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم! كلمة تكلم بها غراب مرة.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الطير لم يكن لها ملك، وأنها اجتمعت آراؤها على بوم لتملكه عليها. فبينماهم في ذلك إذا وقع لهم غراب فقال بعضهم: انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب لنستشيره في أمرنا. فأتاهن الغراب فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تمليك البوم، فقال الغراب: لو أن الطير كلها فقدت وبادت وفقد الطاوس والبط

والحمام والكركي، لما اضطررتن إلى تمليك البوم أقبح الطير منظرًا، وأسوئها مخبرًا، وأقلها عقولاً، وأشدها غضبًا، وأبعدها رحمة، مع الذي بها من الضعف والعشى بالنهار. ومن شر أمورها سوء تدبيرها. ولا يطيق طائر يقرب منه، لصلفه وخبث نتنه وسوء خلقه؛ إلا أن ترين تمليكه وتدبير الأمور دونه.

ثم قال الغراب: والبوم تجمع مع سائر العيوب التي وصفت، المكر والخديعة، فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن.

فصدرت الطير عن خطة الغراب، ولم تُمَلك البوم.

فقال البوم الذي كان اختير للملك: لقد وترتني أعظم الترة، فما أدري هل سلف إليك مني سوء استحققتُ به هذا منك؟ وإلا فاعلم أن الفأس يقطع بها الشجر فتنبت وتعود، والسيف يقطع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جرحه ولا يلتئم ما قطع.

ثم انصرف غضبان موتورًا. وندم الغراب على ما فرط منه، وقال في نفسه: لقد خرقت فيما كان من قولي الذي جلبت به العداوة على نفسي وقومي؛ ولم أكن أحق الطير بهذه المقالة، ولا أعناها بأمر ملكها؛ ولعل كثيرًا منها قد رأى الذي رأيت، وعلم الذي علمت، فمنعها من ذلك، الاتقاء لما لم أتوقه، والنظر فيما لم أنظر فيه.

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سألت عنه من العلة التي بدأت بها العداوة بين البوم والغربان.

قال الملك: قد فهمت هذا فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم، وأشر علينا برأيك الذي ترى أنْ نعمل به فيما بيننا وبين البوم.

قال الغراب: أما القتال فقد كنتَ عرفت رأيي فيه وكراهيتي له، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج.

فأنا أرى أن يغضب عليّ الملك فيأمر بي على رؤوس جنده فأضرب وأنقر حتى أتخضب بالدم، وينتف ريشي وذَنَبي، ثم أطرح في أصل الشجرة، ثم يرتحل الملك وجنده إلى مكان كذا وكذا حتى أمكر مكري، ثم آتي الملك فأعلمه الأمر.

ففعل به الملك ذلك، وذهب بغربانه إلى المكان الذي وصفه له.

ثم إن البوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغربان، ولم تفطن بالغراب في أصل الشجرة. فأشفق الغراب أن ينصرفن ولا يرينه فيكون تعذيبه نفسه باطلاً. فجعل يئن ويهمس حتى سمعه بعض البوم. فلما رأينه أخبرن به ملكهن، فعمد نحوه في بومات يسأله عن الغربان.

قال الغراب: أنا فلان بن فلان، وأما ما سألتني عنه من أمر الغربان فأنت ترى حالي وما صنعوا بي.

قال ملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه، فسلوه بأي ذنب صنع هذا؟

قال الغراب: سفه رأيي فعل بي ماترى.

قال الملك: وما ذلك السفه؟

قال الغراب: إنه لما كان من إيقاعكن بنا ما كان. استشارنا ملكنا فقال: يا أيها الغربان! أما ترون ما نزل بنا من البوم؟ وكنت من الملك بمنزلة وبمكان، فقلت: أرى أنه لا طاقة لكم بقتال البوم. فإنهن أشد بطشًا وأجرأ قلوبًا، ولكن الرأي لكم أن تلتمسوا الصلح وتعرضوا الفدية. فإن قبل ذلك منكم وإلا فاهربوا في البلاد وأخبرت الغربان أن قتالكن خير لكن، وشر لهن، وأن الصلح أفضل ما هن مصيبات منكن، وأمرتهن بالخضوع، فغضبن من قولي وزعمن أنهن يردن القتال، واتهمنني وقلن: بل مالأُت ملك البوم علينا وغششتنا. ورددن رأيي ونصيحتي، وعذبنني بهذا العذاب، فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب استشار وزراءه فقال لأحدهم: ماترى في هذا الغراب؟

فقال: لست أرى أن نناظر هذا، وليس لك في أمره نظر إلا المعالجة بالقتل؛ فإن هذا من أفضل عدد الغربان، وفي قتله لنا فتح عظيم وراحة من مكيدته، وفقده على الغربان شديد.

فقال الملك لآخر من وزرائه: ماترى في هذا الغراب؟

قال: أرى أن لا تقتله، فإن العدو الذليل الذي لا شوكة له أهل أن يصفح عنه ويستبقى، والمستجير الخائف أهل أن يؤمن ويجار.

ثم إن الملك سأل الثالث من وزرائه عن رأيه في الغراب، فقال الثالث: أرى أن تبقيه وتحسن إليه، فإنه خليق بمناصحتك.

ثم إن ملك البوم أمر أن يحمل الغراب إلى مكانهن فيوصى به خيرًا ويكرم ويحسن إليه.

فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يقتل الملك هذا الغراب فلتكن منزلته منكم منزلة العدو المخوف المحترس منه؛ فإن الغراب ذو إرب ومكر ومكيدة، وما أراه يرضى بالمقام معنا، ولا جاء إلينا إلا لما يصلحه ويفسدنا. فلم يرفع الملك بقوله رأسًا، ولم يزدد إلا كرامة للغراب وإحسانًا إليه.

وكان الغراب يكلمه إذا دخل عليه، ويكلم من يخلو به من البوم كلامًا يزدادون به ثقة كل يوم. وإليه استرسالاً، وله تصديقًا.

ثم إنه قال ذات يوم لجماعة من البوم وفيهن البوم الذي أشار بقتله: ليُبْلغن بعضكن الملك عني أن الغربان قد وترتني ترة عظيمة بما فضحتني وعذبتني، وإني لا يستريح قلبي منهن أبدًا حتى أدرك منهن ثأري، وإني قد نظرت في ذلك فلم أجدني أستطيعه وأنا غراب.. فلم يسمعوا لقوله.

ومع الأيام لم يزددن له إلا كرامة حتى استقل ونبت ريشه ونمى وصلح وعلم ما أراد أن يعلم واطلع على ما أراد الاطلاع عليه، ثم إنه راغ روغة إلى الغربان فقال لملكهم: أبشرك بفراغي مما أردت الفراغ منه من أمر البوم. وإنما بقي ما قبلك وقبل أصحابك؛ فإن أنتم صرمتم وبالغتم في أمركم فهو هلاك البوم.

فقال الغربان وملكهم: نحن عند أمرك.

فقال: إن البوم بمكان كذا وكذا، وهن بالنهار يجتمعن في مغار في الجبل. وقد علمت مكانًا كثير الحطب، فتعالوا نعمد إليه، وليحمل

كل غراب منا ما استطاع إلى ذلك النقب. وقرب ذلك الجبل راعي غنم، وأنا مصيب منه نارًا فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم أي نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقي مات خنقًا بالدخان، ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات.

تعليـق:

يضرب هذا المثل الطويل لمن أعمل الحيلة والخديعة مع عدوه حتى أمن من شره، وكف عداوته كما فعل الصحابي نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الخندق عندما بث الفرقة بينهم حتى اختلفوا. وقد قال ﷺ: «**الحرب خدعة**»[١]. وهذا يكون مع أعداء الإسلام، أما أشرار المسلمين فيعاملون بحسب شرهم بدءًا من العفو والنصيحة، إلى أن يصل الحال إلى مقاضاتهم عند الحكام.

* * *

---

(١) متفق عليه.

الأرنـــب والســـنور

قال الغراب: كان لي جار من الصفارِد[١]، وجحره قريب من الشجرة التي فيها وكري، وكان يُكثر مواصلتنا، وطال جوار بعضنا لبعض. ثم إني فقدته فلم أدر أين غاب. وطالت غيبته عني حتى ظننت أنه قد هلك. فجاءت أرنب إلى مكانه لتسكنه فكرهتُ أن أخاصمها في مكان الصفرد ولا أدري ما فعل به الدهر.

فلبثت الأرنب في ذلك المكان زمانًا. ثم إن الصفرد رجع مكانه، فلما وجد فيه الأرنب قال لها: هذاالمكان مكاني، فانتقلي عنه. قالت الأرنب: المسكن في يدي، وأنت المدعي؛ فإن كان لك حق فاستعدِ عليَّ.

قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البينة.

قالت الأرنب: نحتاج إلى القاضي قبل البينة. قال الصفرد: ههنا قريب منا القاضي، فانطلقي بنا إليه.

فقالت الأرنب: ومن القاضي؟

قال الصفرد: سنور متعبد يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يؤذي دابة، ولا يأكل إلا الحشيش، فاذهبي بنا إليه.

فانطلقا، وتبعتهما لأنظر إلى الصوام وقضائه بينهما.

فأتيا إليه هائبين له. فلما رآهما قد أقبلا من بعيد انتصب قائمًا يصلي، فتعجبت الأرنب مما رأت منه.

---

(١) الصفرد نوع من الطيور الصغيرة، يوصف بالجبن.

ولما صارا إليه دنوا منه هائبين له، فطلبا إليه أن يقضي بينهما.

فأمرهما أن يقصا قصتهما عليه، وقال لهما: لقد أدركني الكبر وثقل سمعي فما أكاد أسمع، فادنوا مني لأسمع منكما.

فدنوا وأعادا عليه قصتهما. فقال: قد فهمت ما قصصتما. وإني بادئكما بالنصيحة قبل القضاء: آمركما ألا تطلبا إلا الحق؛ فإن طالب الحق هو الذي يفلح وإن قُضي عليه، وطالب الباطل مخصوم وإن قضي له. وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء، لا مالٌ ولا صديق، إلا عملٌ صالح قدمه فقط؛ والعاقل حقيق أن يكون سعيه فيما يبقى ويعود عليه نفعه، ويمقت ما سوى ذلك. ومنزلة المال عند العاقل منزلة القذى، ومنزلة الناس عنده ـ فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر ـ منزلة نفسه.

فلم يزل يقص عليهما ويدنوان منه ويستأنسان به، حتى وثب عليهما جميعًا فقتلهما.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن غرّ الناس بمظهره وهو بخلاف ذلك، وهذه من صفات المنافقين الذين يُظهرون ما لا يبطنون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٢]. فاحذر هذا الصنف من الناس.. رعاك الله!

الرجـــل والمَكَـــرَه

زعموا أن رجلاً اشترى ماعزًا ضخمًا سوداء ليتصدق بها على الفقراء.. فانطلق بها يقودها.. فبصر به قوم مَكَرَه فأتمروا به ليخدعوه.. فعرض له أحدهم فقال له: أيها الرجل.. ما هذا الكلب معك!؟

ثم عرض له آخر فقال: إني لأظن أن هذا الرجل ليس صالحًا لأن الصالحين لا يقودون الكلاب!

ثم عرض له آخر فقال: أنت تريد الصيد بهذا الكلب؟

فلما قالوا له ذلك لم يشك أن الذي معه كلب.. فقال في نفسه: لعل الذي باعني خدعني. فخلى عن الماعز، فأخذها الثلاثة وذبحوها واقتسموها بينهم!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن انقاد لكلام الناس دون تبصر أو تفكر. فكان في انقياده لهم هلاكه أو خسارته.

* * *

الرجـل واللـص

زعموا أن رجلاً أصاب بقرة حلوبًا فانطلق بها يقودها وتبعه لص فحدّث نفسه بأخذها.. وتبع اللصَّ عدوٌ للرجل فقال اللص له: من أنت؟

فقال: أنا عدو لهذا الرجل أريد أن أتبعه فإذا نام خنقته.. فأنت ماذا تريد؟

فقال اللص: وأنا أريد أن أتبعه إلى منزله لعلي أسرق البقرة.

فانطلقا مصطحبين حتى انتهيا إلى منزل الرجل ممسيين.

فدخل الرجل وأدخل بقرته ثم تعشى ونام.

فخاف اللص أن يبدأ العدو بالرجل فيقتله قبل أن يسرق البقرة فيصيح فيجتمع الناس على صوته فلا يقدر على سرقة البقرة فقال له: انتظر حتى أخرج البقرة ثم عليك بالرجل.

فأبى كل واحد منهما على صاحبه.

فلم يزالا في اختلاف حتى نادى اللص الرجل أن انتبه فهذا عدوك يريد أن يخنقك... وناداه العدو: أيها الرجل إن هذا الرجل يريد أن يسرق بقرتك.

فانتبه الرجل وجيرانه لصوتهما، وهرب الخبيثان.

تعليـق:

يضرب هذا المثل لبيان عقوبة الله لمن اجتمعوا على ضرر غيرهم، فكان عاقبة مكرهم الاختلاف والتنازع.

الثعبان والضفدع

زعموا أن أحد الثعابين كبر وهرم ولم يستطع الصيد فمشى متحاملاً حتى انتهى إلى غدير كثير الضفادع، كان يأتيه فيتصيد من ضفادعه. فوقع قريبًا من العين شبيهًا بالكئيب الحزين.

فقال له أحد الضفادع: ما شأنك حزينًا؟

قال: ومالي لا أكون حزينًا وإنما كان خير عيشي مما كنت أصيد من هذه الضفادع، فابتليت ببلاء حرمت عليَّ الضفادع، حتى إني لو أصبت بعضهالم أجتريء على أكله.

فانطلق الضفدع إلى ملكها فأخبره بما سمع من الأسْوَد(١).

فأتى الملك إلى الأسْوَد وسأله عن ذلك فأخبره به، فسره ما سمعه منه.

فقال له ملك الضفادع: ولم ذلك؟ وكيف كان أمرك هذا؟

قال: إني لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئًا إلا ما يتصدق به الملك عليَّ.

قال: ولم ذلك؟ قال: لأني سعيت في إثر ضفدع من أيام لآخذه، فاضطررته إلى بيت رجل، فدخل البيت ودخلت في أثره، وفي البيت ابن الرجل، فأصبت إصبع الغلام وظننته الضفدع فلدغته فمات. فخرجت هاربًا فتبعني الرجل ودعا عليَّ ولعنني وقال: كما قتلت هذا الغلام ظلمًا له، أدعو عليك أن تذل وتخزى وتكون مركبًا لملك

---

(١) أي: الثعبان.

الضفادع وتحرم أكلها إلا ما يتصدق به عليك ملكها.

فأتيت إليك لتركبني مقرًّا بذلك راضيًا به.

فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود، وظن أن ذلك شرف له ورفعة.

فركب الأسود أيامًا ثم قال الأسود: قد علمت أني محروم ملعون ولا أقدر على الصيد إلا ما تصدقت به عليَّ من الضفادع؛ فاجعل لي رزقًا أعيش به.

فقال ملك الضفادع: لعمري مالك بد من رزق تعيش به ويقيمك. فأمر له بضفدعين كل يوم يؤخذان فيدفعان إليه.

فعاش بذلك ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، وصار ذلك له معيشة ورزقًا.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن حصّل رزقه ومعيشته بأنواع من الذل والمهانة، ورضي بذلك. ولكن! هذا ليس من أخلاق المسلمين وطباعهم، حيث لا ينبغي للمسلم أن يعرض نفسه للذل والمهانة في سبيل لقمة عيش قد ضمنها الله له. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق، الآيتان، ٢، ٣].

* * *

السلحفاة والقرد

زعموا أن جماعة من القردة كان لها ملك يقال له (فاردين) فطال عمره حتى بلغ الهرم، فوثب عليه قرد شاب من أهل بيته. فقال للقردة: قد هرم هذا وليس يقوى على الملك ولا يصلح له، ومالأه على ذلك جنده فنفوا القرد الهرم وملّكوا الشاب.

فانطلق القرد الهرم هاربًا فلحق بساحل البحر فانتهى إلى شجرة من شجر التين نابتة على شاطئ البحر فجعل يأكل من تينها، فسقطت منه تينة في الماء وفيه سلحفاة ذكر. فلما سقطت التينة أخذها السلحفاة فأكلها.

فلما سمع القرد وقع التين في الماء، أعجبه وولع بإلقائه في الماء.

وجعل الغيلم[1] يأخذه فيأكله، ولا يشك أن القرد إنما يطرح التين من أجله.

فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحا وتصادقا، وألف كل واحد منهما صاحبه، ولبثا زمانًا لا ينصرف الغيلم إلى أهله.

ثم إن زوجة الغيلم حزنت لغيبة زوجها فشكت ذلك إلى صديقة لها وقالت: لعلّه أن يكون قد عرض له عارض من شر! فقالت لها صديقتها: لا تحزني فإنه قد بلغني أن زوجك بالساحل مع قرد قد ألفه، فهما يأكلان ويشربان ويلهوان؛ وقد طالت غيبته عنك، فانسيه إذ نسيك، وليهن عليك إذا هنت عليه. وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتهلكيه فافعلي؛ فإن القرد لو هلك قدم عليك زوجك وأقام عندك.

---

(١) ذكر السلحفاة.

فأشحبت زوجة الغيلم لونها وضيعت نفسها حتى أصابتها نهكة شديدة وهزال.

ثم إن الغيلم قال في نفسه: لآتين أهلي فقد طالت غيبتي، فأتى منزله فوجد زوجته عليلة منهوكة سيئة الحال، فقال لها: كيف أنت؟ فلم تجبه.

فقال: إني أراك منهوكة.

فلم تجبه. فأعاد المسألة فأجابت عنها جارة لها وقالت له: ما أشد حال زوجتك؛ أما مرضها فشديد، وأما الدواء فأشد، فهل لشدة الداء وعدم الدواء إلا الموت؟

فقال الزوج: فأخبريني بالدواء فلعلي أقدر عليه وألتمسه حيث كان.

قالت: هذا المرض نحن ـ معاشر النساء ـ أعلم به، وليس له دواء إلا قلب قرد.

قال الغيلم في نفسه: هذا أمر عسير؛ من أين أقدر على قلب قرد إلا قلب صديقي؟ أفغادر بصديقي أم مهلك زوجتي؟ وكل ذلك لا عذر لي فيه.

ثم قال: إذا لم يستطع الرجل عظيمًا إلا باحتمال صغير، كان حقيقًا ألا يلتفت إلى الصغير. وحق الزوجة عظيم، والمنافع فيها كثيرة، والمعونة منها على أمر الدنيا والآخرة غير واحدة؛ وأنا حقيق أن أؤثرها ولا أضيع حقها.

ثم غدا متجهًا نحو القرد وفي نفسه مما يريده حيرة، وهو يقول: إن إهلاكي أخًا وفيًا وصولاً في سبب امرأة، لمن الأمور التي تخاف عواقبها، وليست لله رضا.

فمضى على ذلك حتى أتى القرد. فحياه وقال: ما حبسك عني يا أخي كل هذا الحبس؟

قال الغيلم: إن مما بطأني عنك، مع شوقي إليك، الحياء منك والاحتشام، لقلة مكافأتي إياك بحسن بلائك ومعروفك إليَّ؛ فإني وإن كنت قد عرفت أنك لا تلتمس مني جزاءً بمعروفك، فإني أرى حقًّا علي التماس مكافأتك، وقد أحببت أن تزورني في منزلي، فإنه في جزيرة كثيرة الشجر طيبة الفواكه. فأسعفني بطلبتي واركب ظهري لننطلق إلى منزلي.

فرغب القرد في الفواكه، وتابع الغيلم وركب ظهره. فسبح به الغيلم حتى إذا لجج به في البحر، عرض في نفسه قبح ما يريده وفجوره وغدره. فاحتبس مفكرًا يقول في نفسه: إن الأمر الذي هممت به، أمر كفر وغدر، وما الإناث بأهل أن يركب بأسبابهن الغدر واللؤم، فإنهن لا يوثق بهن، فلما رأى القرد احتباس الغيلم وأنه ليس يسبح، ارتاب وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر، فما يؤمنني أن يكون قد رجع عما كان عليه من مودتي وإخائي، وانصرف إلى غير ذلك، فأراد بي سوءًا؟

ثم قال للغيلم: ما يحبسك؟ وما لي أراك كأنك مهموم؟

قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا توافق فيه كل الذي أحبه لك، فإن زوجتي عليلة.

قال القرد: لا تهتم فإن الهم لا يغني شيئًا والتمس لزوجتك الأدوية والأطباء. قال الغيلم: زعمت الأطباء أنه لا دواء لها إلا قلب قرد. فقال القرد في نفسه: واسوءتاه! لقد أورطني الحرص والشره، على كبر السن، شر مورط.

قال الغيلم: يا خليلي! إنه ليس ينبغي للخليل أن يدخر عن صاحبه نصيحة ولا منفعة، وإن أضرّ ذلك به في نفسه. ولو كنت علمت بهذا كنت قد جئت بقلبي معي. قال الغيلم: وأين قلبك؟

قال: خلفته في مكاني الذي كنت فيه.

قال: وما حملك على ذلك؟ قال: سنة فينا معشر القرود؛ إذا خرجنا إلى زيارة أخ أو صديق نخلف قلوبنا لتزول الظنة عنا. فإن شئت أتيتك به سريعًا.

ففرح الغيلم بطيب نفس القرد، وانقلب به راجعًا، حتى إذا بلغ الساحل وثب القرد إلى الشجرة فصعدها. وأقام الغيلم ساعة ينتظره.

فلما أبطأ عليه ناداه الغيلم: يا خليلي عجل؛ خذ قلبك وانزل، فقد حبستني.

فقال القرد: هيهات! هيهات! بعد أن رأيت منك ما رأيت من خداع.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن تنكر لصديقه وجافاه من بعد المودة ولم يحفظ له عهده، وأضمر له السوء والعداوة من بعد الألفة والمحبة، وهذا ليس من خلق أهل الإيمان الذين يقابلون الإحسان بالإحسان قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١٠].

* * *

الرجـــل وابن عِـــرس[1]

(١) دابة كالفأرة.

زعموا أنه كان بأرض جرجان رجل وكانت له امرأة لبثت عنده زمانًا لم تلد، ثم حملت من بعد فاستبشر بذلك الرجل وقال لها: أبشري فإني أرجو أن تلدي غلامًا يكون لنا فيه متاع وقرة عين، وأنا متقدم في التماس مرضع له ومتخير له من الأسماء أحسنها.

قالت المرأة: أيها الرجل! ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدري هل هو كائن أوغير كائن؟ فاسكت عن هذا الكلام وارضَ ما قسم الله لنا فإن العاقل لا يتكلم فيما لا يدري، ولا يحكم على المقادير في نفسه ولا يقدر في نفسه شيئًا، فاتعظ الرجل بقولها، ثم إن المرأة ولدت غلامًا سويًا فسرّ به أبوه حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك.

فانطلقت المرأة ولم يقعد الرجل إلا قليلاً حتى جاءه رسول الملك فذهب به ولم يخلف مع ابنه أحدًا، إلا أنه قد كان له ابن عرس قد رباه فتركه الرجل عند ابنه وكان مؤدبًا معلمًا، وذهب إلى الملك.

وكان في بيته جُحر أسْود[1]، فخرج يريد الغلام، فوثب عليه ابن عرس فقطعه قطعًا.

وأقبل الرجل عند انصرافه إلى منزله فدخله، فلقيه ابن عرس يسعى إليه كالمبشر له بما صنع.

فلما نظر إليه الرجل متلطخًا بالدم سُلب عقله، ولم يظن إلا أنه قد قتل ولده.

---

(١) أي: ثعبان.

فلم يتأن ولم يتثبت في أمره، فضرب ابن عرس بعصا كانت معه فقتله.

ودخل منزله فرأى الغلام حيًّا والأسود مقتولاً، فأقبل يدق صدره ويلطم وجهه، وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد، ولم أصر إلى هذا الإثم والغدر.

فدخلت عليه المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسود وابن عرس مقتولين؟

فأخبرها بالأمر وقال: هذا جزاء من يعمل بالعجلة ولا يتثبت.

تعليق:

هذا جزاء من يعمل بالعجلة ولا يتثبت، وقد كادت تحدث مثل هذه القصة لأحد الصحابة رضي الله عنهم، ولكنّ الله لطف به وبأهله، وذلك أن أحد الصحابة كان حديث عهد بعُرس، وكان يجاهد مع رسول الله ﷺ، فاستأذن ليعود إلى زوجته، فلما عاد وجدها واقفة أمام باب البيت، فتناوشته الظنون، حتى كاد أن يقتلها، فتداركت الموقف وأخبرته بأن الذي أخرجها هو وجود ثعبان في البيت، فدخل عليه فقتله[1].

* * *

(١) انظر القصة مطولة في صحيح مسلم (١/ ٤٠).

الرجــل والعســل

زعموا أن رجلاً كان يأتيه من بيت أحد التجار رزق من الدقيق والسمن والعسل، فكان يبقي من ذلك السمن والعسل فيجعل الباقي منها في جرة، ثم يعلقها في بيته.

فبينما الرجل ذات يوم مستلقٍ على ظهره والجرة فوق رأسه إذ نظر إليها، فذكر غلاء السمن والعسل فقال: أنا بائع ما في هذه الجرة بدينار فأشتري بالدينار عشرة أعنز، فيحملن ويلدن في ستة أشهر، فيصبح عندي بعد خمس سنين أربعين عنزًا، ثم أبيعها وأشتري بثمنها مائةً من البقر، وأصيب بذرًا وأزرع، ولا يأتي عليَّ خمس سنين إلا وقد أصبت منها ومن الزرع مالاً كثيرًا، فأبني بيتًا فاخرًا وأشتري عبيدًا وإماءً ومتاعًا... فإذا فرغت من ذلك تزوجت امرأة جميلة ذات حسب، ثم تلد لي ابنًا سويًا مباركًا فأربيه وأؤدبه أدبًا حسنًا، فإن لم يقبل الأدب مني ضربته بهذه العصا هكذا... ورفع العصا يشير بها، فأصابت الجرة فانكسرت، وانصب السمن والعسل على رأسه ولحيته!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن طوّف بروحه مع الأماني والأحلام، ورضي من حياته ترديد الأفكار والاستغراق فيها، ونسي العمل! وهذه صفة العاجزين كما قيل (والعاجز من أتبع نفسه هواها).

وليس معنى هذا أن لا يخطط الإنسان لمستقبله تخطيطًا مدروسًا متقنًا، بل يمضي متوكلاً على الله كلما فرغ من مرحلة انتقل إلى أختها، وكل ذلك بنية صالحة.

وإنما الحرج أن يبني الآمال مضطجعًا على الفراش.

قال الشاعر:

إذا تمنيــــتُ بـــتُ الليـــل مغتبطًـــا
إن المنـــى رأسُ أمـــوال المفـــاليـــسِ

* * *

الحمامتان والحب

زعموا أن حمامتين ـ ذكرًا وأنثى ـ ملأا عشهما من البر والشعير. فقال الذكر للأنثى: أما ما وجدنا في الصحاري ما نعيش به فلسنا نأكل مما في عشنا شيئًا. فإذا جاء الشتاء ولم نُصب في الصحاري شيئًا أقبلنا على ما في عشنا فأكلناه.

فرضيت الأنثى بذلك وقالت: نعمَ ما رأيت.

وكان ذلك الحب نديًا حين وضعاه، فامتلأ عشهما منه. وانطلق الذكر في بعض أسفاره. فلما جاء الصيف يبس ذلك الحب ونقص عما كان في العين.

فلما رجع الذكر فرأى الحب ناقصًا قال للأنثى: أليس كنا قد اجتمعنا على ألا نأكل من عشنا شيئًا؟ فلم أكلتِ ؟

فحلفت الأنثى أنها ما أكلت منه حبة.

فلم يصدقها وجعل ينقرها ويضربها حتي قتلها.

فلما جاء الشتاء والأمطار ندى الحب، وعاد إلى ما كان عليه، وامتلأ العش كما كان.

فلما رأى ذلك الذكر، ندم واضطجع إلى جانبها وناداها: كيف ينفعني العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك؟

تعليق:

هذه القصة شبيهة بقصة (الرجل وابن عِرس) ـ التي سبقت ـ وهي تبين عاقبة التعجل في حياة الإنسان، وهي الندم والحسرة.

ملك الجرذان

زعموا أنه كان في أرض الهند بقعة تسمى (دورات) مساحتها ألف فرسخ، وكان في وسط تلك البقعة مدينة تسمى (بدرور) وكانت كبيرة آهلة بالسكان. وكان أهلها يتصرفون في معايشهم كما يحبون، وكان في تلك المدينة جرذ يسمى (مهرايز) وكان مملكًا على جميع الجرذان الذين في تلك المدينة وبساتينها، وكان له ثلاثة وزراء يشاورهم في أموره يسمى أحدهم (روذباد)، وكان ذا عقل وحنكة. وكان الملك معترفًا بعقله وجودة حيلته، ويسمى الثاني شيرع، والثالث بغداد.

وكان الملك يحضرهم جميعًا ويستشيرهم فيما يصلح رعيته.

فحضرا يومًا وتفاوضوا في أشياء كثيرة إلى أن انتهى بهم الكلام إلى هذا المعنى: وهو هل في استطاعتنا أن نزيل عنا ما قد توارثناه من أسلافنا من الفزع والخوف من السنانير أم لا يمكن ذلك؟ فقال شيرع وبغداد وزيراه: أنت رئيس علينا، لأنك في غاية العقل وإصابة الرأي.

وكانت عين الملك إلى الوزير الثالث، فلما لم يره يتكلم قال له بغضب: يا هذا قد كان سبيلك أن تذكر لنا ما عندك في هذا الأمر، ولا تكون كأنك أخرس أبكم لا تقدر على الجواب.

فلما سمع الوزير من الملك هذا الكلام قال: ليس يجب أن يعذلني الملك حيث أمسكت عن الكلام إلى هذا الوقت، لأني فعلت ذلك لأستمع جميع ما أتى به أصحابي على الكمال، وأفكر فيه، ثم بعد ذلك أذكر ما عندي.

قال له الملك: قل إذن ما عندك.

قال: ما عندي أكثر من هذا: وهو أنه إن علم الملك أن له حيلة يبلغ بها مراده من هذا الأمر، ويتحقق ذلك تحققًا صحيحًا، وإلا فما سبيله أن يحرص عليه ولا يدبر بفكره فيه.

عند ذلك قال أحد الوزراء: الرأي عندي أنْ تُجْعل أجراس كثيرة، ويعلق كل جرس منها في عنق واحد من السنانير ليكون كلما ذهب وجاء سمعنا صوت الجرس فحذرنا منها ولم ينلنا مضرة.

فقال الملك للوزير الثاني: ما الذي عندك فيما أشار به صاحبك؟

قال: أنا غير حامد لمشورته. وهبنا أحضرنا أجراسًا كثيرة؛ من ذا يقدر أن يتقدم إلى السنور حتى يعلق عليه ذلك؟ وهبنا علقنا الأجراس في رقابها، فما الذي يمنع السنور من الإضرار بنا؟ وما الذي يزيل عنا الخوف؟ ولكن الذي عندي أن نخرج جميعنا من هذه المدينة ونقيم في البرية سنة واحدة إلى أن يعلم أهل المدينة أنهم قد استغنوا بغيبتنا عن السنانير، لأنه قد يلحق الناس مضرة عظيمة من السنانير؛ فإذا علموا أنه لم يبق في المدينة جرذ واحد قتلوا السنانير وطردوها وتهاربت. فإذا هلكوا عدنا نحن بأجمعنا إلى المدينة كما كنا.

قال الملك للوزير الثالث: ما عندك فيما قال الوزير؟

قال: أنا غير حامد لما قال. وذلك أنا لو خرجنا بأجمعنا إلى البرية، وأقمنا فيها سنة واحدة، فعلى كل حال ليس يمكن أن تفنى السنانير من هذه المدينة، ونلقى نحن في البرية من الشقاء والبلاء ما ليس هو بدون فزعنا من السنانير، لأنا لم نعتد الشقاء قبل هذا. ثم إنا

لو رجعنا إلى المدينة لم يدم لنا ذلك الأمر إلا مدة يسيرة، وذلك أن الناس إذا عدنا وعاد فسادنا، أعادوا السنانير وعادت الحال في الفزع كما كان، ويمضي شقاؤنا وغربتنا فارغًا.

قال له الملك: فقل الآن أنت ما عندك.

قال الوزير، وهو روذباد: لا أعرف في هذا الباب إلا حيلة واحدة؛ وهي أن يُحضر الملك إلى حضرته جميع الجرذان الذين في هذه المدينة ونواحيها فيأمرهم أن يتخذ كل واحد منهم في البيت الذي يأوي فيه ثقبًا يسع جميع الجرذان، ويعد فيه زادًا لكفايتهم عشرة أيام، ويفتح للبيت سبعة أبواب مما يلي الحائط، وثلاثة أبواب مما يلي خزانة الرجل والثياب والفرش. فإذا فعلوا هذا قمنا بأجمعنا إلى دار بعض الموسرين ممن يكون له في داره سنور واحد، وأقمنا على كل باب من السبعة أبواب نرصد السنور كيلا يدخل علينا بغتة. ويكون لنا عليه عين على ذهابه ومجيئه، لأنه لابد من أن يطمع ويقف على بعض الأبواب. ثم ندخل بأجمعنا من الثلاثة أبواب إلى خزانة المتاع، ولا نعرض للمأكول، ولكن نقصد إلى الفساد في الكسوة والفرش، ولا نسرف في الفساد. فإذا رأى صاحب المنزل ذلك الفساد قال: لعل هذا السنور لا يكفي! فيزيد آخر.

فإذا فعل ذلك أكثرنا من الفساد وبالغنا فيه، فيميِّز ذلك صاحب المنزل ويقول: إن الفساد يزيد بكثرة السنانير، ولكن أجرب بإخراج سنور واحد.

فإذا فعل ذلك ونقص سنور نقصنا نحن من الفساد قليلاً.

فإذا أخرج الثاني نقصنا أيضًا من الفساد أكثر.

فإذا أخرج الثالث خرجنا من ذلك المنزل إلى غيره وأجرينا أمره مجرى البيت الأول.

فلا نزال ندور من منزل إلى منزل ونملأ المدينة وندورها إلى أن يتبين للناس أن الذي يلحقهم من المضرة العظيمة هي من قبل السنانير. فإنهم إذا تبينوا ذلك لم يقتصروا على قتل السنانير التي في البيوت فقط لكنهم يطلبون السنانير البرية فيقتلونها.

ففعل الملك وسائر الجرذان ما أشار به الوزير. فما مضت ستة أشهر حتى هلك كل سنور في المدينة ونواحيها. ومضى ذلك الجيل من الناس، ونشأ بعدهم قرن آخر على بِغْضَة السنانير، فكانوا متى ظهر لهم أدنى فساد من الفأر، يقولون: انظروا لا يكون اجتاز بالمدينة سنور. وكانوا أيضًا، متى حدث بالناس أو بالبهائم مرض، يقولون: يوشك أن يكون عَبَر بهذه المدينة سنور. فبهذا النحو تخلص الجرذان من فزع السنانير واطمأنوا منهم.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أعمل عقله وشاور أولي الأمر والذكاء في التخلص من عدوه الذي تسلط عليه. فباجتماع الآراء وتلاقح الأذهان يظفر المرء بالنهج السديد الذي يضيء له طريقه في الحياة.

* * *

الملك والنّقب

زعموا أنه كان على بعض نواحي النيل ملك، وكان في بلده جبل شامخ كثير الأشجار والنبات والثمار والعيون، وكانت الوحوش وسائر الحيوانات التي في ذلك البلد يعيشون من ذلك الجبل، وكان في سفح ذلك الجبل نقب يخرج منه جزء من سبعة أجزاء من جميع الرياح التي تهب في الثلاثة الأقاليم ونصفٍ من أقاليم العالم. وبالقرب من ذلك النقب بيت في غاية حسن البناء والترصيف لم يكن له نظير في العالم كله.

وكان الملك وأسلافه من الملوك يسكنون ذلك البيت والموضع، لم يكن لهم أن يتحولوا منه. وكان للملك وزير يشاوره في أموره. فاستشاره يومًا من الأيام وقال له: تعلم أنّا بما تقدم من أفعال آبائنا الجميلة في نعم فائضة، وأمورنا تجري على محبتنا. وهذا المنزل الذي نحن فيه، لولا هذا النقب، ولولا كثرة الرياح لكان شبيهًا بأعظم بساتين الأرض. ولكن سبيلنا أن نجتهد فلعلنا نجد حيلة يمكننا بها أن نسد فم هذا النقب الذي تهب منه هذه الرياح.

قال الوزير: إن هذا الأمر عظيم الشأن لا يستطيع عليه إلا ذو قوة ورأي.

ففكر الملك قليلاً.. ثم أمر بالمناداة في جميع أرضه ألا يبقى صغير ولا كبير إلا ويجيئه في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا بحمل حطب.

فعمل الناس على هذا.

وكان الملك قد عرف الوقت الذي ينقص فيه هبوب الرياح. فلما كان في ذلك الوقت أمر الناس بسد النقب بالحجارة والحطب والتراب، وأن يبنوا عليه دكّةً عظيمة. ففعلوا ذلك. وامتنعت الرياح التي كانت تخرج من ذلك النقب، وفقد البلد كله نسيم الهواء وهبوب الرياح، فجفت الأشجار ونشفت المياه.

ولم يمض ستة أشهر حتى جفت العيون، ويبست كل خضراء في الجبل من الشجر والنبات، وبلغ ذلك إلى نحوٍ من مائة فرسخ، وتماوتت المواشي وسائر الحيوانات، ووقع الوباء في الناس، وهلك خلق كثير. فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد فوثب من بقي منهم ممن به رمق، وتجمعوا إلى باب الملك فضربوه ووزيره وأهله ولم يبق منهم أحد.

ثم مضوا إلى باب ذلك النقب فقلعوا الدكان والحجارة من الباب وطرحوا في ذلك الحطب نارًا، فالتهبت.

فلما بدأت في اللهيب عاد الناس إلى مواضعهم.

ثم إن الريح التي كانت قد احتقنت في مدة الستة أشهر خرجت بحمية شديدة، فطرحت النار في سائر البلد.

ودام هبوب الرياح يومين وليلتين، فلم يبق في ذلك البلد مدينة ولا قرية ولا حصن ولا شجرة إلا أحرقته النار.

تعليــق:

يضرب هذا المثل لمن أجهد نفسه في تغيير طباع الأشياء التي

خلقها الله مناسبة لحالها ومكانها، فلو زادت شيئًا أو نقصت لتضرر بها الناس. فلم يُفلح في ذلك الجهد، وغلبته تلك الطبيعة أو أضرته.

* * *

القـــط والفـــأر

زعموا أنه كان بأرض (سَرَنديب) شجرةٌ من الدَّوح، وكان في أصلها جُحر لجرذ يقال له (فريدون)، وجحر لسنور يسمى (رومي)، وكان الصيادون ربما اجتازوا بذلك المكان يلتمسون صيد الوحش، وأن صيادًا مرّ ونصب حباله ذات يوم فوقع فيها رومي.

وخرج الجرذ يبتغي ما يأكل وهو مع ذلك حذر يتلفت وينظر. فلما رأى السنور مقتنصًا في الحبال، فرح.

ثم التفت خلفه فأبصر ابن عِرس قد تبعه، فنظر فوقه فإذا بومة على شجرة ترصده.

فخاف، إن انصرف راجعًا، أن يثب عليه ابن عرس، وإن ذهب يمينًا أو شمالاً أخذته البومة، وإن تقدم فالسنور أمامه. فقال الجرذ: هذا بلاء قد اكتنفني، وشرور قد تظاهرت عليّ، ولا مفزع لي إلا إلى عقلي وحيلتي بعد رعاية الله.

ثم قال: لا أرى حيلة أمثل من التماس صلح السنور. فدنا منه وقال: كيف حالك؟

فأجابه السنور: كالذي تهوى، في الضنك والضيق!

قال الجرذ: لا تكذيب لك. لعمري لقد كان يسرني ما ساءك، وأرى ما ضيق عليك لي سعة؛ ولكني اليوم قد شاركتك في البلاء، فلا أرجو لنفسي خلاصًا إلا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك؛ وستعرف مقالتي أن ليس فيها ريب ولا مخادعة، فإنه قد ترى مكان ابن عرس كامنًا لي، والبومة تريد اختطافي،

وكلاهما لي ولك عدو، وهما يخافانك ويهابانك. فإن أنت جعلت لي أن تؤمنني، إن أنا دنوت منك، فأنجو بذلك منهما فإني مخلصك مما أنت فيه. فاطمئن إلى ما ذكرت، وثق به مني.

فلما سمع السنور مقالة الجرذ سر بها وعرف أنه صادق. فقال للجرذ: أرى قولك شبيهًا بالحق والصدق فأنا موافق.

قال الجرذ: فإذا دنوت منك فلير ابن عرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان آيسين. وأقبلُ أنا على قرض الحبال.

ففعل السنور ما أراد الجرذ حتى انصرف ابن عرس والبومة خائبين.

فبدأ الجرذ بقطع الحبال واستبقى منها عقدة.. وقال: لن أقطعها الآن وإنما في الوقت المناسب.. فلما جاء الصياد إلى شبكته. قال الجرذ: آلان جاء وقت الجد، فقطع العقدة الأخيرة وفرّ هاربًا إلى جحره.. وهرب السنور.. وعاد الصياد متحسرًا على شبكته الممزقة.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أخذ بالحذر عند تعامله مع عدوه، ولم يمكنه من رقبته، وإنما استخرج منه ما يريد، وأعطاه بقدر ذلك.

وفيها أيضًا مد يد العون إلى العدو في سبيل القضاء على عدوٍ أخطر منه، فإن المفاسد يُدفع أكبرها ثم أصغرها.. وكل ذلك بحذر ودهاء.

* * *

الملـــك والطائـــر

زعموا أنه كان ملك من الملوك يقال له (برهمود) وكان له طائر يقال له (قبَّره) وكان ناطقًا كيسًا ومعه فرخ له، فأمر الملك بقبرة وفرخة فجُعلا في مكان عند امرأة هي سيدة نسائه وأمرها بالاستيصاء به

ثم إن امرأة الملك ولدت غلامًا، فلما شب قليلاً ألف الفرخ الغلام فكانا يلعبان جميعًا ويأكلان جميعًا، وكان قبرة يذهب إلى الجبل كل يوم فيجيء بثمرتين من فاكهة لا تعرف فيطعم إحداهما فرخه والأخرى ابن الملك، فأسرع ذلك في نباتهما وقوتهما حتى استبان ذلك للملك، فزاد قبرة عنده كرامة.

حتى إذا كان ذات يوم وقبرة غائب في ابتغاء الثمرتين، إذ وثب فرخ قبرة في حجر الغلام.

فغضب الغلام من ذلك وضرب بالفرخ الأرض فقتله.

فلما جاء قبرة ورأى فرخه مقتولاً حزن وصاح، ثم وثب في وجه الغلام ففقأ عينيه برجليه، ثم طار فوقع على مكان مُشرف.

فبلغ الملكَ ذلك، وما فعل بابنه، فجزع جزعًا شديدًا، وطمع أن يحتال لقبرة فيظفر به.

فركب إليه ووقف عنده وناداه ودعاه باسمه، وقال: أنت آمن فأقبل إلينا.

فأبى ذلك قبرة وقال: أيها الملك، إن الغادر لا يجاز له بغدره. وإن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه آجلها، حتى تدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب. وإن ابنك غدر بابني، فعجلت له العقوبة.

فقال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت منا ما صنعنا بك ولو كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا إليك بالغدر كان الأمر كما ذكرت فأما إذ كانا نحن بدأناك فما ذنبك؟ وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ فهلمّ فارجع فإنك آمن.

قال قبرة: إن للأحقاد في القلوب لمواقع موجعة خفية، فالألسن لا تصدق عن القلوب.

قال الملك: إن الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه.

قال قبرة: إن الأحقاد مخوفة حيث كانت... ثم ودع الملك وطار.

تعليـق:

يضرب هذا المثل لمن تجنب أصحاب القلوب التي تحمل البغض والشحناء لمن آذاها بعمدٍ أو بدون عمد، فلم تغفر للمخطيء، ولم تعف عن المسيء وتدفع سيئته بالحسنات، وهذا ليس من طبع أصحاب القلوب السليمة البيضاء الذين يغفرون الذنب، ويسترون العيب، ويكظمون الغيظ.. قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٩٦].

* * *

الأسد وابن آوى[1]

(١) حيوان يشبه الذئب، وهو أصغر حجمًا منه.

زعموا أنه كان بأرض (فيرات) ابن آوى، وكان متألهًا متعففًا. وكان مع ذئاب وثعالب وبناتِ آوى. ولم يكن يصنع ما يصنعون ولا يُغير كما يغيرون، ولا يأكل لحمًا. فخاصمته تلك السباع وقلن له: لا نرضى بسيرتك ولا برأيك الذي أنت عليه؛ مع أن تألهك لا يغني عنك شيئًا، وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا فتسعى معنا وتفعل فعلنا.

فثبت ابن آوى على حاله تلك، وشُهِر بالعبادة والتأله حتى بلغ من الصدق والعفاف والأمانة أفضل ما بلغ أحدٌ من العبادة.

وبلغ ذلك أسدًا كان ملك السباع بتلك الناحية، فرغب فيه.

قال ابن آوى: إن أراد الملك بي هذا فليجعل لي عهدًا، إن بغى عليّ أحد عنده ممن هو فوقي خوفًا على منزلته، أو ممن هو دوني لينازعني منزلتي، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه أو بلسان غيره ما يريد به تحميل الملك عليَّ ـ ألا يعجل عليّ، وأن يتثبت فيما يُرفع إليه ويذكر له من ذلك، ويفحص عنه ثم يقضي فيه بما بدا له.

فوافق الأسد وولاه خزانته، واختصه دون أصحابه بالرأي والمشورة والمنزلة، وازداد به على الأيام عُجبًا، فزاده كرامة وعملاً.

فثقل ذلك على من كان يطيف بالأسد من أصحابه وعماله، وعادوه وحسدوه وائتمروا ليحملوا عليه الأسد ويهلكوه.

فلما اجتمعوا على ذلك من كيدهم، دبوا ذات يوم للحم كان الأسد استطرفه واستطابه فأمر برفعه في موضع طعامه ليعاد إليه، فسرقوه ثم أرسلوا به إلى بيت ابن آوى فخبأوه في موضع لا يطلع عليه أحد.

فلما كان من الغد ودعا الأسد بغدائه فَقَد ذلك اللحم والتمسه فلم يجده، وابن آوى غائب والقوم الذين أرادوا المكر به حضور.

فلما رأوا الأسد قد احتشد في طلب اللحم وغضب، نظر بعضهم إلى بعض فقال أحدهم قولَ المخبر الناصح: إنه لابدّ لنا أن نخبر الملك بعلمنا فيما يضر به وينفعه، وإن شق ذلك على من شق عليه، إنه بلغني أن ابن آوى كان ذهب باللحم إلى منزله.

وأيده غيره وأكثروا على الأسد، فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى وقع ذلك في نفس الأسد، وحقق الاتهام لابن آوى فدعا به فقال: ما صنعت باللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟

قال: دفعته إلى فلان صاحب الطعام ـ وكان ممن تابع القوم ـ فسأله الملك عن اللحم.

فقال: ما دفع إليَّ شيئًا.

فوجه الأسد أمناءه إلى بيت ابن آوى فوجد اللحم في بيته فأتوا به الأسد.

فدنا إلى الأسد ذئب لم يكن ليتكلم بشيء من تلك الأمور، وكان يظهر أنه من أهل العدل الذين لا يتكلمون إلا فيما صح عندهم واستبان لهم أنه حق، فقال: أما إذا اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفونَّ عنه، فإنه إن عفا عنه لم يعد أحد يطلع الملك على خيانة خائن ولا ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يُخرج من عنده ويُحتفظ به، فقال عند ذلك

بعض جلساء الأسد: إني لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور، كيف يخفى عليه أمر هذا المخادع؟

ثم إن الأسد أرسل إلى ابن آوى بعضهم لينظر ما يكون من عذره، فجاء الأسد منه برسالة كذب.

فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يُقتل.

وبلغ ذلك أم الأسد، فعلمت أن الأسد قد عجل في أمره، فأرسلت إلى الذين أُمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت على الأسد فقالت له: لأي ذنب أمرت بابن آوى أن يقتل؟

فأخبرها الأسد بالأمر.

فقالت له: قد عجلت يا بني، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة، ولابن آوى مروءة وفضل فعسى أعداؤه من أصحابك فطنوا لموضع ذلك اللحم فجعلوه في منزله من غير علم منه..

فبينما أم الأسد في كلامها إذ دخل على الأسد بعض من كان مكر بابن آوى فأطلع الأسد على أمره.

فلما علمت أم الأسد أن الأسد قد اطلع على براءة ابن آوى قالت للأسد: أما إذا اطلعت على براءة ابن آوى وجرأة أصحابك عليه فلا ترضين بذلك منهم.. وأعِد لابن آوى منزلته وخاصته.

فلما ظهر للأسد براءة ابن آوى مما اتهم به، ازداد له تكرمة وبه ثقة، فدعاه واعتذر إليه مما كان منه في أمره وقال له: إن الذي كان من الأمر قد زاد فيما كان من ثقتي بك ثقة، وزاد ظني بك إلى ما كان

من حسنه حسنًا فأقم على ما كنت عليه من أمرنا وعملنا، وأضعف له الملك الكرامة وازداد به ثقة وإليه تفويضًا وبه اغتباطًا حتى هلك.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن تعجل في الحكم على الناس، واتهام نياتهم ولم يلتمس لهم عذرًا.

وفيه بيان قبح الحسد والغيرة من الآخرين الذين حباهم الله نعمةً من عنده ومحاولة الإضرار بهم والنيل من أعراضهم، بدلاً من منافستهم على الخير والأعمال الشريفة.

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٤].

* * *

الحمامة والثعلب ومالك الحزين[1]

---

(١) مالك الحزين طائر طويل العنق والرجلين، وسمي بالحزين لأنه يحزن على نقص المياه من حوله، وأحيانًا لا يشرب منها خوفًا من نقصها! حتى يموت عطشًا.

زعموا أن حمامة كانت تُفرِخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وبُعدها، فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها فتلقي إليها فراخها. فبينما هي ذات يوم أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة.

فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين: يا حمامة، مالي أراك كاسفة اللون سيئة الحال؟

فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلبًا دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يهددني ويصيح في أصل النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي.

قال لها مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له: لا ألقي إليك فرخي، فارقَ إليَّ وغرر بنفسك. فإذا فعلتَ ذلك وأكلتَ فرخي، طرتُ عنك ونجوتُ بنفسي.

فلما عَلَّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطيء نهر، فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف، فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل.

فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. فقال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟

قالت: علمني مالك الحزين.

فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطىء النهر، فوجده واقفًا. فقال له الثعلب: يا مالك الحزين! إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟

قال: عن شمالي.

قال: فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك؟

قال: أجعله عن يميني أو خلفي.

قال: فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟

قال: أجعله تحت جناحي.

قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك.

قال: بلى.

قال: فأرني كيف تصنع؟ فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح. فهنيئًا لكنَّ، فأرني كيف تصنع.

فأدخل مالك الحزين رأسه تحت جناحه، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه.

ثم قال: يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتى يستمكن منك عدوك، ثم

أجهز عليه وأكله.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن عَلَّم غيره الخير ونسي نفسه وغفل عنها. كما قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم

فالصواب أن تَعْلم وتعمل، ثم تُعَلم غيرك، قال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٤].

* * *

الفهـــرس

* * *